الحصون الحميدية

للمحافظة على العقائد الإسلامية

تأليف

الأستاذ الجليل السيد حسين أفندي الجسر الطرابلسي

عني بمقابلة أصوله، وتصحيحه

رضوان محمد رضوان

من ذوي العلم بالأزهر

١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر

لصاحبها : مصطفى محمد

مطبعة دار نهضة مصر

بالخرنفش رقم ٣٠

للمحافظة على العقائد الإسلامية

تأليف

الأستاذ الجليل السيد حسين افندى الجسر الطرابلسى

عنى بمقابلة أصوله، وتصحيحه

[illegible]

من ذوى العلم بالأزهر

١٣٥١ هـ — ١٩٣٢ م

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على بمصر
لصاحبها : مصطفى محمد

المطبعة الرحمانية بمصر
بالخرنفش رقم ٣٥

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد : أشرف المرسلين ، وعلى آله ، وصحبه ، أجمعين

«أما بعد» فيقول الفقير الحقير الراجي من الله غفران الوزر عبده حسين بن محمد الجسر الطرابلسي « عفا الله عنه » : انه من المعلوم المسلم عند كل مطلع على تاريخ الأمة المحمدية أن ايمان أهل الاسلام بجميع ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام ، كان في عصره « عصر السعادة » مستنداً للقرآن الشريف ، وحديث الرسول المنيف ، مؤيداً بأدلة العقل السليم ، الناهج في المنهج القويم ، خالصا من شوائب الشبه والاهواء ، سليما من غوائل الاغاليط واختلاف الآراء ، فلذلك كانت ثمراته يانعة ، وزواهره ساطعه ، فكنت ترى أفراد الأمة محافظين على اقامة العبادات ، وانتظام شأن المعاملات ، ممتثلين للأوامر ، منتهين عن المناكر ، متحلين بأخلاق الدين الحسنة ، وآدابه المستحسنه ، لأنه : متى طاب الأصل طابت الفروع ، وعذوبة الماء [illegible] عن صفاء الينبوع

وقد دام ذلك في المسلمين ، وجماعة الموحدين ، الى ان أمر أحد خلفاء [illegible] بترجمة كتب الفلاسفة المتقدمين من الأمة [illegible]

وانتشرت تلك التراجم بين الأمة الاسلامية ، ونشأ من الاطلاع عليها شبه : زعزعت ايمان ضعفاء المسلمين ، ومن ليس عندهم تمكن في معرفة أصول دين سيد المرسلين ، فانبري عند ذلك علماء الأمة المحمدية وأئمتها الاعلام ، المتمسكون بما كان عليه المصطفى وأصحابه عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام : يردون القلوب الشوارد ، ويدفعون تلك الشبه بما يرغم أنف كل معاند ، حتى رأيت كتبهم مزدانة بالدلائل القطعية،على إثبات العقائد الدينية ، وصادعة بردود الشبه التي كانت على الضعفاء أعظم بلية ، فحفظ الله تعالى بصنيعهم ايمان الامة من الغوائل ، وحصنه من صدمات الشبه بأقوى الدلائل

وقد استمر الحال على هذا المنوال ، الى أن ظهرت في هذه العصور الأخيرة الفلسفة الحديثة ، التي خالف فيها أربابها طريقة أسلافهم الفلاسفة المتقدمين،واعتمدوا في ذلك أصولا في الرياضيات والطبيعيات لم تكن تعرف قبل هذا الحين ، وانتشرت هذه الفلسفة بواسطة المطبوعات بين أهل الاسلام ، ونشأت عنها شبه لم تكن معهودة في غابر الاعوام ، وصار كل عاقل يخشى على إيمان الضعفاء من غوائل هذه الشبه الجديدة ، فتجدد الاحتياج الى استئناف الردود السديدة ، وتأليف كتب في حفظ الايمان مفيدة

ولما من الله تعالى على أهل هذا العصر بخليفة رفعت الجلالة ألوية الشرف والفخر،ونشرت لحضرته رايات العز والنصر ، وسما

فى اصلاح الرعية سيرا عجيبا ، وسلك فى نجاح البرايا سلوكا غريبا ،
وقام على أقدام الاقدام ، ونشر منشور فضله على عموم الأنام ،
وصرف أوقاته لنفع الخاص والعام ، وبسط بساط المراحم لكافة
تبعته ، وأفاض فيوض المكارم على جميع صنوف رعيته ، ألا وهو ثانى
القمرين ، ومحيي سنة سيد الكونين ، ناصر الشريعة الغراء ، ورافع
لواء المحجة البيضاء ، سلطان سلاطين العرب والعجم ، ومعيد ما اندرس
من آثار سالف الامم ، الخليفة الاعظم ، والخاقان الافخم ، السلطان
ابن السلطان السلطان الغازى «عبد الحميد» خان ابن السلطان الغازى
عبد المجيد خان نصره الله تعالى وأدامه ، ورفع على ذروة الخافقين
بالفتح المبين أعلامه ، وجه عنايته — حفظه الله تعالى — الى أحوال العلوم
والمعارف ، وألفت الطرف الى شؤون الفضائل والعوارف ، فرآها
بلسان الحال تشكو لجلالته ، وتطلب إحياءها بلمحة من أنظار دولته ،
فرثى لحالها ، وأصغى لمقالها ، وسمع دعواها ، ولبى شكواها ، فشيد
لها المكاتب والمدارس ، وأحضر لها من الكتب والرسائل أنفس
النفائس ، وساق اليها المعلمين من أقطار الارض ، وأمر باحياء دارسها
واطاعة أمره فرض وأى فرض ؟ فقرىء فيها من العلوم والفنون
ما يسر القلب المحزون ، ولم تزل المعارف تنشر فى البلاد ، وتتضاعف
ثمراتها وتزداد ، حتى استنقذت شبان الرعية من ظلمات الجهل ،

ونورت أفكارهم بأنوار العرفان والفضل ، وقد علت بذلك همتهم ، وازدادت بحسن معارفهم قيمتهم .

الا أن ما أحدثته الفلسفة الحديثة التى نقلت الينا على متون المطبوعات ، من غوائل الشبهات ، قد يخشى منه زيغ عقائد شبان ضعفاء الامة ووقوعهم فى الضلالات ، فكان المطابق لرضائه العالى ، والموافق لرأى جلالته السامى ، تأليف كتاب مختصر يشتمل على تقرير العقائد الاسلامية ببراهينها العقلية ، ويتكفل بدفع تلك الشبه التى حدثت من الفلسفة الجديدة وسواها من الاغاليط المضرة بالعقيدة ، مع بيان مايقضى بجلب قلوب شبان المسلمين لمحبة الدين المبين ، والتعشق لحضرة سيدنا محمد سيد المرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه،وعلى آله،وصحبه،أجمعين،عسى أن تعم قراءته فى جميع المكاتب السلطانية ، والمدارس الشاهانية،محافظة على عقائد تلامذتها من أهل الملة الاسلامية ، والشريعة المحمدية ، فوفقت لهذه الخدمة الشريفة التى ينتج عنها-ان شاء الله تعالى-بانظار خليفة رسول الله الخير العظيم لعموم الامة الاسلامية ، وتكون حسنة من حسنات شوكته — حفظه الله — وغرة من غرر عصره الحميدى السعيد المؤيد بتوفيق الله تعالى

فجاء كتابا يسر قلوب المؤمنين ، ويقر أعين الموحدين،مشتملا على مقدمة ، وثلاثة أبواب ، كل باب منها يشتمل على فصول : تحتوى

على ماتمس الحاجة اليه من مهمات الاصول ، وعلى خاتمة : تشتمل على بيان وجوب الخلافة فى الدين المحمدى المبين ، وما لها من حقوق الاطاعة على عموم المسلمين ، وهو حقيق بأن يسمى « الحصون الحميدية ، للمحافظة على العقائد الاسلامية [(١)] » فنتوسل الى الله تعالى بروحانية حبيبه الاعظم - صلى الله تعالى عليه وسلم - أن يؤيد عرش الخلافة العظمى بطول عمر وحياة مولانا الخليفة الاعظم ، ويحفظ ذاته الكريمة ، ويؤيده بالنصر المكين ، والفتح المبين ، اللهم آمين

(١) فى الاصول المطبوعة مانصه : لمحافظة العقائد الاسلامية . واللغة العربية تنظر لهذا شذرا ولعل نسخة المؤلف وافق ما اخترناه فاحفظه ولا تكن أسير التقليد

المقدمة

وهى تشتمل على أربعة ابحاث

البحث الأول

فى تعريف علم التوحيد ، وثمرته ، وفضله ، وافتراض تعلمه على كل مكلف

إعلم أن علم التوحيد هو : علم يبحث فيه عن اثبات العقائد الدينية بالأدلة اليقينية. وثمرته هى : معرفة صفات الله تعالى، ورسله بالبراهين القطعية والفوز بالسعادة الأبدية . وهو أصل العلوم الدينية وأفضلها ، لكونه متعلقا بذات الله تعالى ، وذات رسله عليهم الصلاة والسلام وشرف العلوم بشرف المعلوم . وقد جاءت به جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام من لدن سيدنا آدم إلى سيدنا محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والتسليم ، ولكن لما كان الشيخ أبو منصور الماتريدى ، والشيخ أبو الحسن الأشعرى : أشهر من دون كتب هذا العلم ، وأقام الأدلة والبراهين على رد ما قاله المخالفون : شاع أنهما الواضعان له ، ويفترض تعلمه على كل مكلف : من ذكر وأنثى — ولو بأدلة اجمالية . واما معرفة أدلته التفصيلية فهى فرض كفاية اذا قام بها

بعض الأمة سقط الطلب عن الباقين ، والصحيح : أن من قلد غيره فى العقائد الدينية بأن يعتقدها اعتقادا جازما لا يقبل الشك والتردد يكون إيمانه صحيحا ، ولـكنه يكون آثما بترك النظر فى الادلة ، ان كان قادرا على ذلك والا فلا ، وانما سمى هذا العلم علم التوحيد لأن أشهر مباحثه البحث عن توحيد الله تعالى ، وهو أساس الدين

البحث الثانى

فى بيان حقيقة الايمان ، وحقيقة الاسلام

إعلم أن الايمان الذى كلف الله تعالى به عباده ، وجعل جزاءه دخول الجنة ، والنجاة من النار هو : تصديق سيدنا محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيما علم مجيئه به بالضرورة أى اعتقاد صدقه عليه الصلاة والسلام اعتقادا جازما فيما جاء به عن الله تعالى ، وعلم مجيئه به يقينا مع الاذعان القلبى لذلك : وذلك مثل الايمان بالله تعالى ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقضاء والقدر ، وافتراض الصلاة ، وبقية العبادات الاسلامية : من الزكاة ، والصيام ، والحج على المستطيع ، وتحريم قتل النفس المعصومة ظلما ، والزنا ، وأمثال ذلك

والاسلام : هو الخضوع والانقياد باطنا وظاهرا لما جاء به الرسول عليه الصلاة السلام ، وعلم مجيئه به بالضرورة أى علم مجيئه به يقينا . فكل من الايمان والاسلام المنجيين : لا ينفك عن الآخر

فكل مؤمن مسلم ، وكل مسلم مؤمن ، لان المصدق ذلك التصديق للرسول عليه السلام لابد أن يكون خاضعا لما جاء به عليه السلام ، والخاضع هذا الخضوع لابد أن يكون مصدقا ذلك التصديق . ثم ان النطق بالشهادتين — وهما : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله — قد جعل شرطا لازما لاجراء الاحكام الدنيوية على المؤمن : من نحو مناكحته ، والصلاة خلفه ، والصلاة عليه ، ودفنه في مقابر المسلمين . فاذا لم ينطق بهما لعذر كالخرس ، أو لم يتمكن من النطق بهما بأن مات عقب ما آمن بقلبه ، أو اتفق له عدم النطق بهما بعد الايمان بقلبه أيضا ، فهو : مؤمن عند الله تعالى ، وناج في الآخرة ، لكن من امتنع عن النطق بهما عنادا بعد أن عرض عليه ذلك فهو كافر والعياذ بالله تعالى ، ولا عبرة بتصديقه القلبي الذي يحصل منه ، لأن هذا الامتناع قد جعله الشرع منافيا للايمان ، وحكم بكفر صاحبه

البحث الثالث

في بيان ما اعتبره الشرع منافيا للايمان ، ومبطلا له والعياذ بالله تعالى

إعلم أن الشرع الشريف نهى وحذر عن الامور المنافية للايمان ، وحكم بكفر من يرتكبها وان كان مصدقا بقلبه ، ومنقادا لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام : وذلك مثل السجود للصنم اختيارا ، أو الاستهانة بما عظمه الدين . كالقرآن الشريف ، وحديث الرسول

المنيف ، والشريعة المطهرة ، ورسل الله الكرام ، وأسمائه العظيمة ، وصفاته الكريمة ، وأوامره ونواهيه ، والفرائض الدينية ، كالصلاة ، والحج ، أو الشتم لواحد مما ذكر ، أو التلفظ بكلمة الكفر ؛ أو نحو ذلك ؛ فان هذا وأمثاله ينافى الايمان ، ويحكم على مرتكبه بالكفر والخذلان ، وكذلك اذا كذب الانسان شيئا من النصوص الشرعية الثابت ورودها عن الرسول عليه الصلاة والسلام يقينا : كآيات القرآن ، وأحاديث الرسول المتواترة عنه عليه السلام أى التى نقلها الجماعة الكثيرون الذين يؤمن توافقهم على الكذب ، أو استحل حراما ثبتت حرمته فى الشرع قطعا ، وظهرت حكمة قبحه ، كقتل النفس المعصومة ، والزنا ، وأمثال ذلك ؛ فان ذلك الانسان يكون قد أخل بالتصديق الايمانى ، والانقياد الاسلامى ، وأتى بما يبطلهما ، ويحكم عليه شرعا بالكفر ، وعلى كل من كفر — والعياذ بالله تعالى — أن يبادر لتجديد ايمانه واسلامه ، ويتوب مما ارتكبه ، وإلا : فيستحق القتل فى الدنيا ، والخلود فى النار فى الآخرة ، نعوذ بالله تعالى وبه نعتصم

البحث الرابع

فى أحكام العقل الثلاثة : وهي الوجوب ، والاستحالة ، والجواز

إعلم أنه لما كان الايمان بالله تعالى — على ما سيأتى — هو : معرفة مايجب لله تعالى، ومايستحيل عليه ، ومايجوز فى حقه سبحانه،

وكذلك الايمان ببقية ما يجب الايمان به : من نحو الرسل ، والملائكة ،
لزم أن نبين معنى الوجوب ، والاستحالة، والجواز العقليات التى انحصرت
بها أحكام العقل ، وليس له حكم سواها : فنقول : —

أما الوجوب العقلى فهو : عدم قبول الانتفاء ، والشيء الذى
لا يقبل الانتفاء يقال له الواجب العقلى . مثاله : كون الواحد نصف
الاثنين ، ووجود خالق العالم ؛ فكون الواحد نصف الاثنين واجب
عقلى ، ووجود خالق العالم واجب عقلى: لا يقبلان الانتفاء والعدم ،
لكن الأول واجب عقلى بديهى لا يحتاج الى دليل ، والثانى واجب
عقلى نظرى يحتاج الى دليل

وأما الاستحالة ، فهى : عدم قبول الثبوت ، والشيء الذى لا
يقبل الثبوت يقال له المستحيل العقلى ، ويسمى محالا أيضا . مثاله :
كون الثلاثة نصف العشرة ، ووجود شريك لخالق العالم ؛ فكون
الثلاثة نصف العشرة مستحيل عقلى ، ووجود شريك لخالق العالم
مستحيل ومحال عقلى ، لكن الأول مستحيل عقلى بديهى لا يحتاج
الى دليل والثانى مستحيل عقلى نظرى يحتاج الى دليل

وأما الجواز . فهو : قبول الثبوت والانتفاء ، والشيء الذى يقبل
الثبوت والانتفاء يقال له الجائز العقلى ، مثاله سفر زيد ، أو قلب الحجر
ذهبا بقدرة الله تعالى ، فسفر زيد جائز عقلى ، وقلب الحجر ذهبا بقدرة
الله تعالى جائز عقلى، لكن الاول جائز عقلى بديهى لا يحتاج الى دليل

ويسمى عاديا أيضا بمعنى أنه يحصل وقوعه فى العادة ولا تستغربه العقول ، والثانى جائز عقلى غير بديهى يحتاج ثبوت جوازه الى دليل ويسمى غير عادى ، بمعنى أنه يندر وقوعه فى العادة ، أو أنه لم يقع قط ، ولذلك تستغربه العقول فى بادئ الأمر ، ولكن إذا بحث عنه بالدليل وجد أنه جائز الوقوع ، وليس مستحيل الوجود ، ومثله انقلاب العصا ثعبانا ، وانفلاق البحر ، وعدم حرق النار لجسد الانسان ، ونطق الحيوان الاعجم ، وأمثال ذلك ، فان هذه الاشياء وان كان وقوعها غير عادى ، لكن إذا بحث عنها بالدليل وجد أنها جائزة الوقوع ، وداخلة تحت تصرف قدرة موجد العالم سبحانه

وإنا إذا قطعنا النظر عن العادة لم تكن أمثال هذه الأشياء بأغرب من خلق الانسان الذى يكون أولا ترابا ، ثم ينقلب نباتا ، ثم غذاء ، ثم دما ، ثم نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم حيوانا ناطقا ، سميعا بصيراً ، ثم يصير عالما محققا ، وحكيما مدققا ، ولولا العادة لكان من أغرب الغرائب عند العقل أن المطر ينزل على الارض الترابية : فينبت به أنواع الاشجار والأزهار والأثمار المتنوعة الألوان ، والطعوم ، والروائح ، والخواص ؟ ولولا العادة لكان من أعجب العجائب أن شرارة صغيرة تخرج من قدح حديدة على حجر فتبتلع مدينة كبيرة بأهلها وجميع ما فيها . وتصيرهم رمادا ، ولولا العادة لكان من أبعد شيء عن التصديق أن قوة غير مرئية تحصل من تفاعل بعض الأجزاء ، فتحرك الاجسام

العظيمة ، وتجر الاثقال الجسيمة ، وتتناقل بواسطتها أفكار البشر في أقطار الارض الشاسعة ، ولجج البحار الواسعة ، ألا وهي القوة الكهربائية إلى غير ذلك من الكائنات التي ما أزال غرابتها عن العقول إلا تكرر وقوعها بيننا ، ولا فرق بين هذه الاشياء العادية الوقوع وبين تلك الاشياء غير العادية الوقوع إلا حصول العادة في الاولى دون الثانية ، وإلا فاذا نظرنا في الدليل العقلي ، وجدنا أن كلا منهما جائز الوقوع وداخل تحت تصرف قدرة موجد العالم الذي ابتدع هذه الاكوان وأودعها من الاسرار ما تحتار فيه الافكار

وليعلم أن تلك الجائزات غير العادية هي التي جعل الله تعالى وقوعها على أيدي الرسل عليهم الصلاة والسلام معجزة لهم ، شاهدة بصدقهم فيما يخبرون به عنه تعالى ، كما سيأتي شرح هذا في المباحث الآتية ، إن شاء الله تعالى.

الباب الأول

في بيان الايمان بالله تعالى ، وبيان اعتقاد أهل السنة بالنصوص الشرعية الواردة في صفاته سبحانه ، وفيه ستة فصول

الفصل الأول

في تعريف الايمان بالله تعالى

اعلم أن معنى الايمان بالله تعالى هو : أن يعلم العبد ويعتقد اعتقادا جازما ما يجب لله تعالى من الصفات، وما يستحيل عليه من أضدادها ، وما يجوز في حقه سبحانه ، فيعتقد إجمالا اعتقادا جازما أنه يجب لله تعالى كل صفة كمال تليق بشأن الالوهية ، ويستحيل عليه تعالى كل نقص، ويجوز في حقه فعل كل ممكن أو تركه ، ولكن يجب على العبد أن يعتقد تفصيلا بوجوب ثلاث عشرة صفة كمالية لله تعالى : عليها مدار الالوهية ، وعظمة شان الربوبية ، وباستحالة أضدادها عليه سبحانه ، وتلك الصفات الثلاث عشرة : هي الوجود وضده العدم ، والقدم وضده الحدوث ، والبقاء وضده الفناء ، والمخالفة للحوادث وضدها المماثلة للحوادث ، وقيامه تعالى بنفسه وضده قيامه تعالى بغيره ، والوحدانية وضدها أن لا يكون واحدا ، والارادة وضدها الكراهية

والقدرة وضدها العجز، والعلم وضده الجهل ، والسمع وضده الصمم، والبصر وضده العمى ، والكلام وضده البكم ، والحياة وضدها الموت ، وكمال هذا الاعتقاد أن يكون بالبراهين المفيدة لليقين ، ولنشرح في الفصل الآتي بيان وجوب كل صفة من هذه الصفات الثلاث عشرة ، واستحالة أضدادها مع الدليل المفيد لليقين في ذلك بعون الله تعالى

الفصل الثاني

في بيان الصفات الثلاث عشرة التي يجب الايمان تفصيلا بوجوبها لله تعالى ، وباستحالة أضدادها مع الدليل المفيد لليقين في ذلك

«الصفة الاولى» الوجود : يجب لله تعالى الوجود ، ويستحيل عليه ضده وهو العدم، والدليل على ذلك أن هذا العالم المشاهد لنا بجميع مايحويه حادث، وكل حادث لابد له من محدث، فهذا العالم لا بد له من محدث . أما الدليل على أن هذا العالم حادث فهو كونه ملازما للاعراض الحادثة: من الحركة والسكون ، والصور الحيوانية ، أو النباتية ، أو المعدنية أوغيرها من الصور التي لا تخلو مدة العالم وجوهره عن واحدة منها ؛ وكل ملازم للحادث يكون حادثا . وتوضيحه: أن هذه الاعراض حادثة بدليل أن كل واحد منها يزول ويخلفه غيره والقديم لا يزول ، لأنه إما قديم لذاته، وإما قديم لغيره بمعنى أن شيئا آخر قديما استلزم وجوده ، وما دامت ذات القديم قائمة ، أو الذي استلزمه قائما فلا يجوز عدم زواله

فاذا ثبت كون هذه الاعراض حادثة نقول : أصل مادة العالم وجوهره إما أنه كان موجودا قديما، وخاليا عن أعراض وهذا باطل؛ لأن الاعراض ملازمة له لا يخلو عنها جميعها ، إذ لا يتصور خلوه عن الحركة والسكون وجميع الصور ، واما أن يقال : حدث وحدثت تلك الاعراض معه ، فثبت حينئذ انه حادث والاعراض أيضا حادثة ، فثبت أن هذا العالم بجميع ما يحويه حادث وهو المطلوب

وأما الدليل على أن كل حادث لا بد له من محدث ؛ فلأنه لو وجد الحادث بدون محدث يلزم الترجيح بلا مرجح ، وهو من المستحيلات البديهية . وتوضيحه لمن قد يخفى عليه ذلك : أن العقل لا يصدق بأن إحدى كفتى ميزان متساويتين فى الثقل بينما كانتا متوازنتين ، أو اليسرى مثلا مائلة وبالغة بميلها إلى الأرض بسبب من الأسباب إذا رجحت اليمنى على اليسرى وارتفعت اليسرى الى غاية ما يمكن من ارتفاعها وأن ذلك حصل بدون مرجح للكفة اليمنى الراجحة ، لا بقوة حيوان ، ولا بمصادمة هواء ، ولا جسم آخر سقط فيها ، ولا بشيء مما يصلح لترجيحها ، ومن يصدق بهذا عد من الحمقا ، ولا فرق بين هذا المثال وبين جميع ما يتصور من الحقائق سواء كانت حسية أو عقلية فى أن الترجيح بلا مرجح فيها من المستحيل كما هو ظاهر . فثبت بهذا : أن وجود الحادث بلا محدث مستحيل ، فلا بد لكل حادث من محدث يخرجه من ظلمة العدم إلى نور الوجود

فتممت لنا الدعوى وهي : أن هذا العالم الحادث لابد له من محدث . ثم إن هذا المحدث لابد أن يكون موجوداً ، لان المعدوم لايصلح أن يكون موجدا لشيء كما هو ظاهر ، فثبت بجميع ماتقدم وجوب وجود محدث موجد لهذا العالم واستحالة عدمه وهو المطلوب من هذا البحث ، وقد سمى العقلاء هذا الموجد للعالم باله العالم ، ووردت الشرائع بتسميته باسم الجلالة وهو الله تبارك وتعالى

« الصفة الثانية » القدم : يجب لله تعالى القدم ويستحيل عليه تعالى ضده وهو الحدوث ، والدليل على ذلك أنه سبحانه لو كان حادثا لاحتاج الى محدث ومحدثه ـ مع فرضه حادثا ـ يحتاج الى محدث ، وهكذا ، فيلزم إما الدور وإما التسلسل وكل من الدور والتسلسل محال . فما أدى الى واحد منهما وهو حدوث الله تعالى يكون محالا ، واذا استحال حدوثه وجب أن يكون قديما وهو المطلوب

أما الدور فهو : توقف وجود كل من الشيئين على وجود الآخر ، فيلزم أن كلا منهما وجد قبل وجود سببه فيلزم أن يوجد قبل وجود ذاته وهو ظاهر البطلان ، فلو قلنا : ان الاله الذي توقف عليه وجود العالم توقف وجوده على العالم لزم أن العالم قد وجد قبل وجود الاله الذي كان سبب وجوده ، فيلزم أن يكون وجد العالم قبل وجود ذاته وهو ظاهر البطلان

وأما التسلسل فهو : ترتب أمور وتعاقبها فى جانب الأزل لانهاية لها، وإنما حكم العقل باستحالته ، لأنه يستلزم المحال وما يستلزم المحال يكون محالا .

وقد ذكر العلماء لبيان استحالة التسلسل عدة أدلة نذكر منها هنا مايسهل فهمه ، فنقول : لاشك أن العقل يحكم قطعا بأن الشيء الذى يكون محصورا بين حاصرين لابد أن يكون متناهيا واجتماع كونه محصورا بين حاصرين وكونه غيرمتناه محال ،فلو كان التسلسل جائزا عقلا لساغ لنا أن نفرض خطين يخرجان من نقطة بصورة ساقى شكل مثلث ذاهبين الى غير نهاية ، فاجزاؤهما بمنزلة أمور مرتبة متعاقبة فى جانب الأزل غير متناهية ، ثم لنا أن نفرض المسافات التى بين هذين الخطين ونعتبرها خطوطا تمتد وتطول كلما امتد الخطان وتباعدا هكذا فاذا قلنا بعدم تناهى الخطين يلزم منه عدم تناهي المسافات بينهما التي اعتبرناها خطوطا ، فلا بد أن تنتهى الى خط من تلك الخطوط غير متناه ، والحال أنه محصور بين حاصرين ، وهى الخطان ، وقد تقدم: ان المقدار الذى يكون محصوراً بين حاصرين لابد أن يكون متناهيا ، واجتماع كونه محصورا بين حاصرين وكونه غير متناه محال ، فما أدى اليه وهو عدم تناهى الخطين الذى فرضنا فيه التسلسل يكون محالا . فبعد بيان أن كلا من الدور والتسلسل محال

يثبت : أن الاله الذى هو موجد العالم لايجوز أن يكون حادثا عن شيء آخر ، والا يلزم الدور فيما لو قلنا ان وجود الاله متوقف على وجود العالم ، أو التسلسل فيما لوقلنا : ان وجود الاله متوقف على وجود شيء آخر ، والشيء الآخر متوقف على آخر ، وهكذا الى غير نهاية ، وكل من الدور والتسلسل محال — كما تقدم — فما يؤدى الى واحد منهما وهو: كون الاله حادثا متوقفا على غيره يكون محالا . واذا استحال حدوثه وجب أن يكون قديما ، اذلاواسطة بين الحدوث والقدم ووجوب قدمه سبحانه واستحالة حدوثه هو المطلوب

ثم بعد ثبوت قدم الله تعالى واستحالة حدوثه نقول : ان قدمه سبحانه لذاته وليس قدمه لغيره ، بمعنى أن أمر آخر اقتضى وجوده، لانه لو قيل : بأنه قديم لغيره لانتقل الكلام الى ذلك الغير ويقال : هل هو قديم لذاته أو لغيره ؟ وهكذا الى غير نهاية فيلزم التسلسل وهو محال فلم يبق الا القول : بأنه قديم لذاته أى انه ليس مستنداً فى قدمه الى سواه

« الصفة الثالثة » البقاء : يجب لله تعالى البقاء، ويستحيل عليه ضده وهو الفناء والزوال . والدليل على ذلك أنه قد ثبت وجوب القدم الذاتى لله تعالى ، واستحالة الحدوث عليه سبحانه ، وما دام أنه تعالى قديم لذاته ، وذاته تعالى قائمة . وقيامها يستلزم وجودها ، فلا يجوز أن يقبل الفناء والزوال . فثبت بهذا ان الله تعالى يجب له البقاء، ويستحيل

عليه ضده وهو الفناء وهو المطلوب

«الصفة الرابعة» المخالفة للحوادث : يجب لله تعالى المخالفة للحوادث ويستحيل عليه ضدها ، وهو المماثلة للحوادث ، بان يكون تعالى مشابها لهذه الموجودات الحادثة فى خاصة من خواصها التى من طبيعة نفسها أن تكون لازمة لها لا تنفك عنها ، أو من طبيعة نفسها أن تقبلها ، سواء كانت توجد فى جميع الانواع منها أو فى بعضها وذلك : كالجوهرية ، والجسمية ؛ والعرضية ، والتحيز ، والتركب ، والتجزىء ، والتولد عن الغير ؛ وولادة الغير ؛ والاتصال والانفصال ، والحيوانية ، والنباتية والمعدنية ، والانتقال من حيز الى حيز ، والانفعالات النفسية : كالضحك ، والتعجب : وأمثال ذلك ؛ لان الاله — سبحانه — لو شابه هذه الموجودات الحادثة فى شىء من تلك الخواص لكان مثلها ، لأن الشىء الذى يشابه شيئا آخر فى خاصة من خواصه يكون مثله ألبتة ؛ ولو كان الاله مثلها لجاز عليه ما جاز عليها من الحدوث والفناء ، لانه ما جاز على أحد المثلين جاز على الآخر ، وقد قام الدليل على وجوب قدمه تعالى ، وبقائه : واستحالة حدوثه وفنائه ، فقد ثبت بهذا أن الله تعالى لا يجوز عليه أن يشابه هذه الموجودات الحادثة : فوجب له مخالفتها ، واستحال عليه المماثلة لها وهو المطلوب

«الصفة الخامسة» قيامه تعالى بنفسه : يجب لله تعالى قيامه بنفسه ، ويستحيل عليه تعالى ضده وهو قيامه بغيره : بمعنى احتياجه

الى مكان يقوم فيه ، أومحل يحل فيه ، أو مخصص يخصصه ،أوموجد يوجده . والدليل على ذلك أنه قد ثبت فى دليل المخالفة للحوادث أنه تعالى ليس جوهرا ولا جسما ؛ فلا يحتاج الى مكان يقوم فيه ، لأن الاحتياج الى المكان من خواص الجواهر والأجسام ، وثبت هناك أنه تعالى ليس عرضا فلا يحتاج الى محل يحل فيه ويتقوم به كما تحتاج الأعراض مثل الألوان والطعوم الى ذلك ؛ وثبت أيضا أنه تعالى قديم فلا يحتاج الى مخصص يخصصه وموجد يوجده فثبت وجوب قيامه تعالى بنفسه ؛ واستحالة قيامه بغيره وهو المطلوب

« الصفة السادسة » الوحدانية : يجب لله تعالى الوحدانية أى أنه تعالى واحد فى ذاته ؛ وفى صفاته ؛ وفى أفعاله ؛ ويستحيل عليه ضدها وهو : أن لا يكون تعالى واحدا فيما ذكر ، بان يكون مركبا فى ذاته أوفى صفاته ، أو يكون له مماثل فى ذاته أوفى صفاته . أو له مشارك فى خلق فعل من الأفعال

أما الدليل على أنه تعالى ليس مركبا فى ذاته ، ولا فى صفاته ؛ فهو : أنه تعالى لو كان مركبا فى واحد منها لاشبه الحوادث فى خاصة من خواصها ؛ ومقتضيات ذاتها ، وهو التركيب — كما تقدم فى دليل مخالفته تعالى للحوادث — فيكون حادثا مثلها : وقد قام الدليل على وجوب قدمه تعالى واستحالة حدوثه : وأما الدليل على أنه تعالى ليس له مماثل فى ذاته : ولا فى صفاته . فلانه لو وجد له مماثل فى ذاته يجب لذلك

المماثل ما يجب له تعالى . ويستحيل عليه ما يستحيل عليه سبحانه .
أو وجد له مماثل فى صفاته الواجبة القديمة . لاسيما فى تمام القدرة
على كل ممكن — كما سيأتى فى إثبات وجوب القدرة التامة له تعالى —
لكان ذلك المماثل فى الذات . أو فى الصفات الواجبة القديمة إلها ولو كان
معه سبحانه وتعالى فى الوجود اله . لما وجد هذا العالم كما أشير اليه
بقوله تعالى « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » أى لو كان يقوم
فى خلق السموات والارض الهة غير الله تعالى أى وان كان الله تعالى
معهم لفسدتا أى لم توجدا . وشرح هذا الدليل أن يقال . لو تعدد
إله العالم كأن يكون هناك إلهان أو أكثر — اذ لا فرق فى هذا الاستدلال ،
لما وجد شىء من هذا العالم ، لكن عدم وجود شىء من هذا العالم
باطل ، لأنه موجود وثابت بالمشاهدة ، فما أدى اليه وهو تعدد
الاله يكون باطلا ، وإذا بطل التعدد ثبتت الوحدانية وهو المطلوب
وانما يلزم من وجود إلهين عدم وجود شىء من العالم ، لأنهما إما أن
يتفقا على ايجاد هذا العالم ، وإما أن يختلفا : فان اتفقا فلا جائز أن يوجداه .
لأنه إما أن يحصل بايجاد كل منهما وجود للعالم مستقل ، فيلزم أن له
وجودين وهو انما له وجود واحد فقط ، وإما أن لا يحصل بإيجادهما
الا وجود واحد للعالم ، فيلزم أن كلا منهما لم يوجده بانفراده ، بل
بمشاركة الآخر ، فيكون هذان الالهان قد ركبا وجعلا إلها واحدا
ينسب اليه الايجاد ولا ينسب لواحد منهما على الاستقلال . لانه

جزء الموجد ، لاموجدمستقل ، وإله العالم انما هو موجده المستقل، اذ يلزم له كمال القدرة وغير المستقل يكون عاجزا محتاجا الى معين ، وأيضا اذا قيل: ان الاله حقيقة هو المجموع المركب من الاثنين قلنا: قد ثبت ان التركيب محال على الاله لوجوب مخالفته للحوادث في صفاتها التى من خواص نفسها ومنها التركيب ، ولا جائز أن يوجده أحدهما ثم يوجده الآخر ، لان هذا تحصيل حاصل وهو محال كما هو ظاهر ، ولاجائز أن يوجدأحدهما البعض من هذا العالم ، والآخر البعض الآخر للزوم عجزهما حينئذ لانه لماتعلقت قدرةأحدهمابالبعض سد على الآخر طريق تعلق قدرته به ، وهذا عجز ينافى تمام القدرة على كل شيء ، والعجزعلى الالهمحال، كما سيأتى من وجوب تمام قدرته تعالى على كل جائز، وان اختلفا ، بأن أراد أحدهما ايجاد هذا العالم ، والآخر اعدامه فلا جائز أن تنفذ ارادتهما معا ، لئلا يلزم على هذا اجتماع النقيضين : وهو وجود العالم وعدمه فى آن واحد وهو محال ولا جائز آن تنفذ ارادة أحدهما دون الآخر للزوم عجز من لم تنفذ ارادته ، والآخر مثله ، لانعقاد المماثلة بينهما ، وقد يقال اذا نفذت ارادة أحدهما دون الآخر ، كان الذى نفذت ارادته هو الاله دون الآخر لعجزه وتم دليل الوحدانية

ودليل آخر على استحالة تعدد الاله انه لما وجب وجود إله للعالم بدليل ان الحوادث لابد لها من محدث ، فاذا وجد إله آخر فاما أن

لايكون كل منهما كافيا فى ايجاد العالم فلا يكون كل منهما إلها ، لأن الاله هو الكافى المستقل ، وإما أن يكون واحدمنهما كافيا فالثانى يكون ضائعا لاحاجة اليه ، والاله لايكون كذلك

وأما الدليل على أنه تعالى ليس له مشارك فى فعل من الافعال . فلأن الحوادث فى هذا الكون اما هي حدوث حيوان ، أو نبات أومعدن ، أوحركات غيرالحيوانات : كحركات الكواكب ، والرياح أوحركات الحيوانات غير الاختيارية : كحركة نموها ، وحركة انتعاشها الحاصلة بسبب الحمى مثلا ؛ فهذه الاشياء من البديهى انه ليس لسوى الله تعالى من المخلوقات دخل فى ايجادها واحداثها ، ومما يجزم به كل عاقل انه لم يصوره بصورته التى هو عليها أبوه ، أوأمه ، أوأحد من الخلق فيقال بعد ذلك : ان الدليل على تفرد الله تعالى بايجاد جميع ماذكر هو نظير الدليل على أنه تعالى ليس له مماثل فى ذاته ، ولا فى صفاته، اذ نقول فى ايجاد كل منهما : لو كان هناك موجدان . فاما ان يتفقا فى ايجاد كل شيء مما ذكر . وأما أن يختلفا ويتمم الدليل الى آخره كما تقدم قريبا فيثبت أنه ليس خالق لهذه الاشياء الا الله تعالى . وأما أن تلك الحوادث حركات العباد الاختيارية : من نحو قيام زيد : ومشى عمرو ونحو ذلك . فهذه أيضا انما المتفرد بخلقها وايجادها هو الله تعالى . والدليل على ذلك أنه لو كان العبد هو الموجد والخالق لفعله الاختيارى لكان عالما بتفاصيله ، لكن علمه بتفاصيله باطل ، فكونه هو الموجد له

يكون باطلا فلم يبق الا ان الموجد له هو الله تعالى الذى أوجد بقية الـكائنات ولم يشاركه فيها مشارك

والدليل على بطلان علم العبد بتفاصيل فعله : أن النائم تحصل عنه أفعال اختيارية . لاشعور له بتفاصيل مقاديرها وكيفاتها. وان الـكاتب يصور الحروف والـكلمات بتحريك أنامله من غير شعور له بما للأنامل من الأجزاء والاعضاء . أعنى العظام والغضاريف والاعصاب والعضلات والرباطات ولابتفاصيل حركاتها وأوضاعها التى بها تتاتى تلك الصور والنقوش . ثم انه قد تواترت النصوص الشرعية بان الخالق لأفعال العباد هو الله قال تعالى فى كتابه العزيز « والله خلقكم وماتعملون » وقال تعالى « هل من خالق غير الله »

ويسوغ لاهل الايمان الاعتماد فى عقائدهم على هذه النصوص الثابتة فى الدين المحمدى المبين . وأخذها دليل عقيدتهم على أن الخالق لافعال العباد هو الله تعالى . لكن للعبد كسبا فى أفعاله الاختيارية هو مناط الثواب والعقاب . وبه صح نسبة الفعل الى العبد في قولنا فعله . قال الامام الاعظم أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه فى « الفقه الأكبر » مانصه : وجميع أفعال العباد من الحركة والسكون كسبهم على الحقيقة والله خالقها انتهى . قال مفسر كلامه من الأئمة الكرام : يعنى أن أصل الفعل بقدرة الله تعالى والاتصاف بكونه طاعة أومعصية بقدرة العبد . وبيان آخر أن العبد يوجه ارادته الى الفعل ويعلق قدرته به فيكون

ذلك منه سببا لاتصافه به كبقية الاسباب فى جانب مسبباتها ·
وهذا من العبد هو الكسب والله تعالى عند ذلك يوجده بقدرته ·
وهذا هو الخلق وهذا هو المذهب المتوسط بين الافراط والتفريط ·
فلا نقول بانه : لا دخل للعبد فى جميع أفعاله، ولا نقول : بانه لا دخل لله
فى أفعال العباد الاختيارية بل نقول : ان الله تعالى خالق أفعالهم وهم
يكتسبونها · وعلى كسبهم يثابون أو يعاقبون

« الصفة السابعة » الارادة : يجب لله تعالى الارادة وهى صفة
قديمة قائمة بذاته تعالى يخصص بها كل جائز ببعض مايجوز عليه ،
ويستحيل عليه ضدها وهو الكراهية ، والدليل على ذلك انه قد ثبت
أن هذا العالم لم يحدث بذاته . وانما حدث عن الله سبحانه · وحينئذ
نقول : ان حدوث العالم عنه تعالى اما أن يكون بطريق العلية
والضرورة بدون ارادة واختيار ، وأما أن يكون بطريق الارادة
والاختيار أى أنه هو الذى اراد وجوده واختاره وعين له الوقت
الذى يوجده فيه ، لاجائز أن يكون حدوث العالم عنه تعالى بطريق
العلية والضرورة بدون اختيار ؛ لانه لو كان الامر كذلك — والله
سبحانه قديم : لازم أن يكون العالم قديما لانه حينئذ يكون معلولا لله
تعالى · والمعلول يجب أن يتبع علته ولايتأخر عنها وقد ثبت أن العالم
حادث وجد بعد أن لم يكن · فلم يكن حدوثه عن الله تعالى بطريق
العلية والضرورة · فلم يبق الا أنه حدث بارادة الله تعالى واختياره

وتخصيصه له الوقت الذى يوجده فيه ، فقد ثبت بهذا أن الله تعالى إله العالم مريد مختار فوجبت له الارادة واستحال عليه ضدها وهو الكراهية وهو المطلوب

« الصفة الثامنة » : القدرة يجب لله تعالى القدرة وهى : صفة قديمةقائمة بذاته تعالى ،يوجد بها الحوادث ويعدمها ، ويستحيل عليه ضدهاوهو العجز ، والدليل على ذلك ايجاده سبحانه لهذا العالم وما احتوى عليه من الانواع ذات العظمة والغرابة : من نحو عالم الحيوان ، وعالم النبات ، وعالم المعادن التى تشتمل على مئات الالوف من الاصناف التى تحتار فى عظمتها وغرابتها العقول ، وتغرق فى بحار عجائبها الفهوم ولا يصدق العقل السليم ، ومن أجلى المستحيلات عنده : ان من أوجدهذا العالم بهذه العظمة ،والجلالة ،والغرابةيكون عاجزا مسلوب القدرة . فثبت بهذا أن الله تعالى إله هذا العالم الذى أوجده من العدم بتلك العظمة ، يجب له القدرة ، ويستحيل عليه ضدها وهو العجز وهذا هو المطلوب

« الصفة التاسعة » العلم : يجب لله تعالى صفة العلم وهى : صفة قديمة قائمة بذاته تعالى تنكشف له بها جميع الاشياء من الواجبات ، والجائزات ، والمستحيلات . فيعلم سبحانه كل شىء منها على ما هو عليه من الوجوب ، أو الاستحالة ، أو الجواز ، ويستحيل عليه تعالى ضده وهو الجهل . والدليل على ذلك ايجاده سبحانه لهذا العالم بما

احتوى عليه من العجائب والغرائب مع نهاية الاتقان ، وغاية الاحكام
مما تحتار فى دقيق صنعه العقول ، وفى اتقانه الفهوم ، ويتضح هذا
من نظر الانسان فى أقرب الاشياء اليه، وهو ذاته المشتملة على التدبير
الباهر ، والاتقان الذى تحتار فيه الاذهان . فكيف اذا تأمل
فى عجائب الكواكب ونظامها ، وعالم الحيوان ، والنبات ، والمعدن ،
وما حوته من الانواع ، والموافقات ، والاختلافات الى غير ذلك من
العجب العجاب ؟ ومن المستحيل عند العقل السليم : أن الذى أوجد
هذا العالم بهذا الاتقان والاحكام ، ودقيق الصنعة ، وعجيب الوضع
يكون جاهلا غير عالم ، فثبت بهذا أن الله تعالى إله العالم الذى أوجده
بهذا الاتقان يجب له العلم ، ويستحيل عليه ضده وهو الجهل وهذا
هو المطلوب .

وتوضيح دليل وجوب القدرة ، والعلم لله تعالى بنوع من البسط
أن نقول : ان من نظر مثلا ساعة من الساعات التى يستعلم بها الوقت
المحتوية على عدة آلات هندسية، متقنة محكمة ، حتى وفت بالغرض
وضبطت الاوقات حتى الثوانى منها : لا شك عنده ، ولا ريب
فى أن لها صانعا صنعها ، وان هذا الصانع له قدرة كافية لصنعها ، وعلم
كاف لاتقانها وإحكامها حتى تفى بالغرض المقصود منها . ومن يصدق
بانها حصلت وتكونت بنفسها بطريق الصدفة بدون صانع صنعها
وأتقنها . أو أن صانعها عاجز مقطوع اليدين والرجلين جاهل مجنون

الهندسة والصنائع . بل هو خامل الفكر . جاهل بكل علم . ومع ذلك صنعها بذلك الاتقان والاحكام فيعد هذا المصدق من الحمقاء . الذين لا يفرقون بين الارض والسماء . فكذلك اذا نظرنا فى هذا العالم مع ما احتوى عليه من عجائب كواكبه . وغرائب حيوانه . ونباته ، ومعدنه التى ملأت علومها الكتب وطفحت بها الصحف . ولم نزل قاصرين عن الاحاطة بكل ما اشتملت عليه من العظمة والغرابة — كما يعلم من الاطلاع على كتب الفنون المتكفلة بالكلام على هذه العوالم — نجزم قطعا مع غاية اطمئنان قلوبنا بان هذا العالم بجميع مشتملاته لا بد له من صانع صنعه وأبرزه بهذا الاتقان والاحكام . ونوع أنواعه وصنف أصنافه . وميز أشخاصه . وهو قادر أتم القدرة . وعالم أكمل العلم . يستحيل عليه العجز والجهل . ومن نسب ذلك الصنع العظيم العجيب الى حدوثه بنفسه صدفة واتفاقا . أو الى شيء آخر عاجز جاهل خال عن كل ادراك ومعرفة فلا شك أنه من أحمق الحمقاء . وأجهل الجهلاء ؟ وان تستر بتمويهات واهية . وخرافات ساقطة : اذ فطرة العقل السليم تابى تصديق دعواه الباطلة : فنحن نجزم بما اعتقدناه من نسبة صنع هذا العالم للاله القادر العليم سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

الصفة العاشرة السمع : يجب لله تعالى [illegible] صفة قديمة قائمة بذاته [illegible]

ويستحيل عليه ضده وهو الصمم ، والدليل على ذلك ان الصمم نقص والنقص على إله العالم الذى أوجده مكملا، ووهب السمع لبعض أنواعه، وجعله من أكبر النعم عليهم محال . واذا استحال عليه سبحانه الصمم وجب له السمع وهو المطلوب

« الصفة الحادية عشرة » البصر : يجب لله تعالى صفة البصر وهى : صفة قديمة قائمة بذاته تعالى ليست بمقلة ولاحدقة : تنكشف له تعالى بها مبصراته . ويستحيل عليه تعالى ضده وهو العمى ، والدليل على ذلك ان العمى نقص والنقص على الله تعالى الذى أوجد هذا العالم مكملا ، وزين بعض أنواعه بنعمة البصر محال . واذا استحال عليه تعالى العمى وجب له البصر وهو المطلوب

« الصفة الثانية عشرة » الكلام : يجب لله تعالى. صفة الكلام وهى : صفة قديمة قائمة بذاته تعالى ليست بحرف ولا صوت : تدل على الواجبات . والمستحيلات . والجائزات ما كان منها وما يكون : يفهم بها سبحانه ما يريد افهامه لاحد عباده. ويستحيل عليه ضده وهو البكم . والدليل على ذلك أن البكم نقص والنقص على الله تعالى إله العالم الذى أوجده وكمل بعض أنواعه بالنطق والكلام محال واذا استحال عليه سبحانه البكم وجب له الكلام وهو المطلوب

وتوضيح دليل وجوب صفة السمع . والبصر . والكلام له تعالى واستحالة أضدادها وهى : الصمم . والعمى . والبكم بنوع ..

أن نقول : إن الصفات التسع التى تقدم اثبات وجوبها له تعالى واستحالة أضدادها : وهى أى تلك الصفات ، الوجود. والقدم ، والبقاء. والمخالفة للحوادث ، وقيامه بنفسه ،والوحدانية ، والارادة، والقدرة . والعلم وان كان عليها مدار الألوهية ووجود إله متصف بها يكفى في توجيه وجود هذا العالم ، ويقنع العقل السليم ، لكننا إذا تأملنا بعد ذلك فى شأن هذا الاله سبحانه وفى بديع مصنوعاته وما احتوت عليه من كمال الاتقان والأحكام ، بحيث إنه سبحانه أعطى كل شيء كماله وكل ما يقوم بوجوده ، ويصلح لشأنه ، نجزم بأنه إذا كانت مصنوعاته فى هذا الكمال فمن المستحيل أن يكون هو سبحانه ناقصا لأننا فى جميع مانتصوره لانجد الشيء يوجد مثله فضلا عن أن الناقص يوجد و يبتدع الكامل أو أن الكامل يوجد أكمل منه ، هذا الانسان هو أعلم الحيوانات وأقدرها فى الصناعة ، مهما صنع وابتدع ، فانه لا يقرب فى صنعه من الكمال الذى هو قائم فيه فضلا عن أن يصنع مثله أو أكمل منه فلا يقدر على صنع نبات فضلا عن صنع حيوان أو إنسان بل لو سقطت شعرة من جسده لايقدر على اعادتها كما كانت . وما نراه يجرى على يده من ظهور النبات ، والحيوان ، فانما هو بمباشرته الأمور التى جعلها الله تعالى أسبابا عادية لتولد النبات أو الحيوان: فتراه يضع البذر فى الأرض ويعرضه للحرارة ويسقيه الماء فينبت منه نبات وهو لا يدرى كيف نبت ، وحدثت فيه سائر خواصه

من اللون ، والطعم والرائحة ، وغير ذلك ، وكذلك يضع بيض الطائر في الحرارة فيتولد منه طائره وهو لايدرى كيف تكون ذلك الطائر ، وشق سمعه ، وبصره ، وتصور لحمه ، ودمه ، وسائر أعضائه ، وفي هذا بيان ظاهر أن الانسان لم يصنع النبات ، والحيوان ، وانما تسبب في صنعهما ، مع جهله بكيفية نشأتهما عن أسبابهما ، وإله العالم هو المنفرد بصنعهما جل وعز ، فعلى جميع ما تقدم : نجزم بأن هذا الاله الذي أوجد العالم من العدم ، ونوع منه الأنواع التي تحار فيها الافهام ، وكمل بعضها بالسمع والبصر والكلام ، يجب أن يكون له مرتبة الكمال في صفاته التي ثبتت لدينا بالدليل العقلي وفي كل صفة كمالية تليق به تعالى والا كان دون مصنوعاته وذلك خلاف مايصدق به العقل ، فنعتقد أنه سبحانه وتعالى سميع بصير متكلم ، بل متصف بكل صفة كمال تليق بشأن الألوهية ، ويستحيل عليه تعالى الصمم ، والعمى ، والبكم ، وهو الذى أبدع السمع ، وأنار البصر ، وأطلق اللسان بالكلام ، كما يستحيل عليه تعالى أن يكون ناقصا في صفة كمالية وقد أوجد في مصنوعاته كل كمال

هذا : ويسوغ لنا معشر المسلمين أن نكتفي في اعتقاد ثبوت هذه الصفات الثلاث وهى : البصر ، والسمع ، والكلام له ... الدليل السمعى من نحو قوله تعالى « وهو السميع البصير » وقوله « وكلم الله موسى تكليما » ونخرج بذلك عن ...

« الصفة الثالثة عشرة » الحياة : يجب لله تعالى صفة الحياة وهى: صفة قديمة قائمة بذاته تعالى ، تصحح عقلا اتصافه بصفاته الجليلة : من نحو القدرة ، والارادة ، والعلم ، ويستحيل عليه تعالى ضدها وهو الموت ، والدليل على ذلك أنه لو كان ميتا لما صح اتصافه بصفاته التى قام الدليل على وجوب اتصافه بها : من نحو القدرة ، والارادة ، والعلم ، لكن قام الدليل على وجوب اتصافه بها فمن المحال أن يكون سبحانه وتعالى ميتا ، واذا استحال عليه الموت وجب له الحياة وهو المطلوب

الفصل الثالث

فى بيان أن من صفات الله تعالى — التي تقدمت — ما يتعلق بالأشياء ، وكيفية تعلقها ، وأن منها ما لا يتعلق بشيء

اعلم أن صفات الله تعالى الثلاث عشرة التي تقدم لنا إقامة الدلائل على وجوبها له تعالى ، واستحالة أضدادها ، منها ما لا يتعلق بشيء وهى سبع صفات : الوجود ، والقدم ، والبقاء ، والمخالفة للحوادث وقيامه بنفسه ، والوحدانية ، والحياة ، ومعنى عدم تعلقها بشيء أنه لا يكون بها تخصيص الأشياء ولا ايجادها ولا كشفها ولا الدلالة عليها كما يكون للصفات الآتية ، ومنها ما له تعلق بالأشياء وهى ست صفات له تعالى وهى : الارادة ، والقدرة ، والسمع ، والبصر ، والعلم ، والكلام

أما الارادة والقدرة فيتعلقان بالجائزات فقط . ولا يتعلقان بالواجبات ، والمستحيلات . فالأرادة تتعلق بالجائز تعلق تخصيص فيخصص الله تعالى بها فى الازل الجائز ببعض ما يجوز عليه . مثلا يخصص الله تعالى فى الازل زيدا بأنه يوجد أم لا . وبأنه اذا وجد يكون على صفة كذا فى الزمن الفلانى . والمكان الفلانى . والجهة الفلانية من الأرض . وهلم جرا وبهذا التخصيص يجب أن يكون هذا الجائز على ماخصصه الله تعالى به بارادته ويستحيل أن يكون بخلاف ذلك ، لأنه لو كان بخلاف ما أراده الله تعالى فيه لزم أن يكون الله تعالى كارها مقهورا يحصل فى ملكه مالايريده وهى حالة لايرضى بها المخلوق المملوك فما بالك بالخالق ملك الملوك سبحانه وتعالى ؟ والقدرة له تعالى تتعلق بالجائز تعلق تأثير بايجاده أو باعدامه على طبق ما تعلقت به الأرادة فى الازل مثلا إذا تعلقت ارادته تعالى فى الأزل بايجاد زيد على صفة كذا فى زمن كذا فى مكان كذا فاذا جاء الزمن الذى تعلقت ارادته تعالى بايجاد زيد فيه تعلقت قدرته تعالى بايجاده فيوجده سبحانه فيه بقدرته على الصفة التى خصصه بها فى المكان الذى خصصه له بارادته ، وكذلك إذا تعلقت إرادته تعالى باعدام عمرو على وجه مخصوص تعلقت قدرته تعالى باعدامه ، فيعدمه سبحانه بقدرته على طبق تعلق الارادة بدون تخلف . والا لزم تخلف ارادة الله تعالى وهو محال كما تقدم قريبا

وانما لم تتعلق كل من ارادة الله تعالى ، وقدر . ـلا ايجادا ، ولا إعداما بالواجبات : كذاته تعالى ، وصفاته ، وملازمة الجرم للحيز ، ولا بالمستحيلات : كالشريك له تعالى ، والجمع بين النقيضين : ككون زيد موجودا معدوما في آن واحد ، فلأن الواجب حاصل حتما ولا يمكن خروجه عن الوجود إلى العدم ، فلا تتعلق به الارادة والقدرة لا ايجادا لأن ذلك تحصيل حاصل وهو محال ، ولا إعداما لاستحالة عدمه وخروجه عن الوجود ، ولأن المستحيل معدوم حتما ولا يقبل الوجود فلا تتعلق به الارادة والقدرة لا إعداما لأن ذلك تحصيل حاصل وهو محال ولا إيجادا لاستحالة وجوده وخروجه عن العدم . وعلى تقرير هذا المقام لو سأل سائل وقال : هل يقدر الله تعالى على إعدام الواجب الفلانى أو على إيجاد المستحيل الفلانى كشريكه تعالى؟ فالجواب المقترن بالأدب أن نقول: إن البرهان قد دل على أن قدرة الله تعالى لا تتعلق بالواجبات ولا بالمستحيلات لا ايجادا ولا إعداما وما ذكرت أيها السائل فهو من الواجبات ، أو من المستحيلات فقدرة الله لا تتعلق بهما ، ولانقول : إنه تعالى لايقدر على ذلك لأن هذا من سوء الأدب فى جانب الحضرة الالهية ويوهم العجز عليه تعالى وتقدس

وأما السمع والبصر له تعالى فيتعلقان بجميع الموجودات — سواء كانت واجبات ، أوجائزات تعلق انكشاف — ولايتعلقان بالمعدومات

سواء كانت مستحيلات أو جائزات — فيرى سبحانه وتعالى ذاته الكريمة وصفاته ويسمع كلامه كما أنه يرى ويسمع كل مرئى ومسموع جائز من مخلوقاته فيرى الذرة فى الليلة الظلماء ، ويسمع صوت مشيها على الصخرة الصماء ؛ لأن سمعه وبصره تعالى ليس كسمع الحوادث وبصرهم الحادثين الناقصين المتوقف ادراكهما على شروط وأسباب عادية

وأما علمه تعالى وكلامه سبحانه فيتعلقان بالواجبات، والمستحيلات والجائزات الموجودات منها والمعدومات: أما علمه فيتعلق بهذه المذكورات تعلق انكشاف: فيعلم الله تعالى بعلمه الواجب وانه واجب وذلك: كذاته المقدسة وصفاته، ويعلم بعلمه المستحيل وانه مستحيل وذلك: كالشريك له تعالى، ويعلم الجائز وانه جائز سواء كان موجودا أو معدوما سيوجد أو لا يوجد فيعلمه سبحانه على ما هو عليه ولا يعزب عن علمه سبحانه شيء من كلى أو جزئى فى الأرض أو فى السماء : فيعلم عدد الرمال وقطرات الأمطار وورق الأشجار وذرات الكائنات ولا نهاية لمعلوماته سبحانه

وأما كلامه تعالى فيتعلق بالواجبات والمستحيلات والجائزات تعلق دلالة: فكلامه سبحانه الذى ليس بحرف ولا صوت يدل على كل واجب ومستحيل وجائز موجود أو معدوم ، بكل ما هو عليه يفهم الله تعالى بكلامه كل واحد منها لمن أراد إفهامه من عدده كملائكته ورسله عليهم الصلاة والسلام

الفصل الرابع

في بيان أنه يجب أن نعتقد بجميع صفاته تعالى وأسمائه التي ورد الشرع بما يفيد ثبوتها له تعالى ، مع بيان أن أسماءه تعالى توقيفية

اعلم أنه لما ثبت عندنا معشر المسلمين أن سيدنا محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب صلى الله عليه وسلم هو رسول الله تعالى بدليل ما ظهر على يديه من المعجزات الخارقة للعادة التي كان ظهورها على يديه تصديقا له من جانب الله تعالى بدعوى الرسالة ، وحيث ثبت أنه رسول الله: يجب له الصدق فى جميع ما يخبر به ، ويستحيل عليه الكذب ، كما سيأتى برهان جميع ذلك فى الباب الثانى إن شاء الله تعالى : وجب علينا وصح لنا تصديقه فى جميع ما جاء به فى نصوص شريعته من اثبات الصفات لله تعالى ، وقد جاء فى نصوص شريعته من القرآن الشريف وحديثه المنيف ما يفيد وصف الله تعالى بالصفات التى تقدم ذكرها مع اثباتها لله تعالى بالدليل العقلى واستحالة أضدادها وهى التى عليها مدار الألوهية وعظمة شأن الربوبية ، وجاء أيضا فى نصوص الشريعة ما يفيد وصف الله تعالى بصفات أخرى كمالية : من أنه تعالى عدل حكيم صمد هاد خالق رزاق قيوم الى أمثال ذلك مما صفحت به نصوص الشريعة المحمدية : فيجب الإيمان بجميع ما ورد له تعالى من الصفات العلية فى نصوص الشريعة الأحمدية ، لأن المخبر بها

وهو رسول الله صادق مجزوم بصدقه بما قام من دلائل رسالته من عندا لله تعالى

ثم كما جاءت نصوص الشريعة باثبات الصفات له تعالى كذلك جاءت باثبات أسمائه سبحانه التي سمى بها نفسه ومنها لفظ « الله » الذى هو الاسم الخاص به تعالى وهذا اللفظ الكريم كما أن اللغة العربية تطلقه على الاله سبحانه وتعالى قبل إرسال سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام كذلك جاءت الشريعة باطلاقه عليه تعالى فتسميته تعالى به تسمية شرعية نعتمد بها على نص الشريعة وهكذا بقية أسمائه تبارك وتعالى فتسميته بكل منها شرعية ولا يجوز تسميته باسم لم يرد به الشرع الشريف، وهذا معنى قول علماء الاسلام : إن أسماء الله تعالى توقيفية ، أى ان اطلاق كل اسم منها عليه بتوقيف الشرع الشريف ولا يجوز اطلاق اسم عليه تعالى بدون توقيفه

الفصل الخامس

فى بيان ماورد فى نصوص الشريعة نسبته إلى الاله تعالى مما يوهم التشبيه والمماثلة للحوادث ، وبيان كيفية اعتقاد أهل السنة والجماعة فى ذلك ، وطريق تأويله عند الحاجة اليه

إعلم أنه كما ورد فى الشريعة المحمدية ما يفيد وصف الله تعالى

بصفات كمالية، منها ماقامت الدلائل العقلية على ثبوته له تعالى ، ومنها ما ليس كذلك لكن لما أخبر به الرسول المبرهن على صدقه بالمعجزات ولا مانع عقلا يمنع من ثبوته له تعالى آمنا وصدقنا به وذلك مثل كونه تعالى قابل التوبة من عباده وانه يثيب الطائع ويعذب العاصى كذلك وقد ورد فى نصوص الشريعة الغراء نسبة أشياء لله تعالي توهم ظواهرها مماثلته ومشابهته للحوادث وسميت تلك النصوص بالمتشابهات والحال أن الدليل العقلى قد قام على وجوب مخالفته تعالى للحوادث واستحالة مماثلته لها، وكذلك الدليل النقلى ورد بذلك . قال الله تعالى « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » فنعتقد فى تلك النصوص المتشابهات أن لها معانى صحيحة تليق به تعالى خالية عن استلزام مماثلته تعالى للحوداث : وليست هى المعانى المتبادرة من ظواهر تلك النصوص المستلزمة للمماثلة ونفوض علم حقيقة تلك المعانى الصحيحة اليه سبحانه فنكون بذلك الاعتقاد منزهين له تعالى عن مماثلة الحوادث ومفوضين له فى علم ما أراد من تلك النصوص ، وهكذا كان اعتقاد السلف الصالح رضى الله عنهم ، لكن لما ظهر بعض الفرق المبتدعة وتمسكوا بظواهر تلك النصوص المتشابهات واعتقدوا المعانى المتبادرة منها المستلزمة لمماثلته تعالى للحوادث، وخيف على اعتقاد بعض الضعفاء فى الدين من سريان بدعتهم اليه تأول العلماء المتأخرون هذه النصوص المتشابهات تأويلات مناسبة موافقة للأدلة العقلية على ماذكر

فى كتب التفاسير وشروح الأحاديث، وهم فى تلك التأويلات عند التصدر لرد مذهب المبتدعة أو تثبيت عقيدة الضعفاء كأنهم يقولون مادامت تلك النصوص المتشابهات محتملة لمعان صحيحة مناسبة موافقة للأدلة العقلية جارية على قواعد اللغة العربية فبالحمل عليها احتمالا يحصل التوفيق بينها وبين الأدلة الدالة على وجوب مخالفته تعالى للحوادث واستحالة مماثلته تعالى لها ونسلم من اعتقاد ماربما يخرج به المرء عن الايمان ، والعياذ بالله تعالى — وبيان الطريقتين فى ذلك أنه قد ورد قوله تعالى فى القرآن المجيد « الرحمن على العرش استوى » وقوله تعالى : « ويبقى وجه ربك» وقوله تعالى « يد الله فوق أيديهم » وقوله تعالى : «والسموات مطويات بيمينه» وقوله تعالى « وجاء ربك » إلى غير ذلك من الآيات ، وورد في الحديث الشريف قوله عليه الصلاة والسلام « رأيت ربى فى أحسن صورة » وقوله عليه الصلاة والسلام « إن الجبار يضع قدمه فى النار » وقوله عليه الصلاة والسلام « ينزل ربكم إلى سماء الدنيا » إلى غير ذلك من الأحاديث ، فالطريق الأسلم الذى درج عليه السلف الصالح رضى الله تعالى عنهم أن نقول فى هذه النصوص: إن لها معانى غير مايتبادر منها وهى صحيحة موافقة للأدلة العقلية والنقلية الدالة على وجوب مخالفته تعالى للحوادث ، وإنا نؤمن بها ، ونفوض معرفة حقيقتها إلى علم الله تعالى. وهذا القدر يكفى فى صحة الايمان فاستواؤه تعالى على العرش هو صفة

من صفاته تعالى اللائقة به ليس كاستواء الحادث المستلزم للجسمية والجهة ، والنزول الى سماء الدنيا صفة من صفاته تعالى اللائقة به ليس كنزول الحادث المستلزم الانتقال من حيز إلى حيز ، والمجى كذلك ، ونقول أيضا : إن له تعالى يدا و يمينا وقدما ليست كأعضائنا بل : هى على ماتليق به سبحانه لاتستلزم التجزؤ والمقدار وهو سبحانه أعلم بحقيقة تلك المعانى التى أرادها من تلك النصوص ، وهكذا القول فى كل نص متشابه

وإذا تصدينا لرد مذهب المبتدع المدعى مماثلته تعالى للحوادث تمسكا بظواهر هذه النصوص ، أو أردنا تثبيت عقيدة الضعفاء فى الدين ، فنقول على طريق التأويل : ان تلك النصوص تحتمل معانى غير مايتبادر منها لاتستلزم مماثلته تعالى للحوادث وبالحمل عليها توافق الأدلة العقلية والنقلية الدالة على تنزيهه تعالى عن المماثلة ونأمن بذلك من الخطأ فى الاعتقاد الذى ربما يؤدى إلى الكفر والعياذ بالله تعالى ، وبيان ذلك أنه يحتمل أن المراد من الاستواء على العرش هو الاستيلاء والقهر كما قال الشاعر العربى :

* قد استوى بشر على العراق *

أى استولى ، والمراد بذلك بيان عظمته تعالى ونفوذ حكمه على كل شىء من هذا العالم ، ويحتمل أن المراد بالنزول الى سماء الدنيا هو الاقبال على عباده ، وقد ورد فى اللغة العربية النزول بمعنى الاقبال فالمعنى ان

الله تعالى يقبل على عباده في ذلك الحين فعبر عن ذلك الاقبال بالنزول الى سماء الدنيا، ويحتمل أن المراد بالمجيء هو الاقبال أيضا وأن المراد وجاء أمر ربك وسلطانه ، ويحتمل أن المراد بالوجه الذات فانه يطلق ويراد به الذات ، وأن المراد باليد واليمين القدرة وكل ذلك له شواهد من استعمالات اللغة العربية التى جاء القرآن والأحاديث النبوية بها ، وهكذا يجرى التأويل فى كل ما ورد من المتشابهات فليس شيء منها إلا وقد وجد له العلماء تأويلا مناسبا موافقا للأدلة العقلية على قانون اللغة العربية ، وقد أفردوا لذلك كتبا تكفلت ببيان ذلك، فعلى كل مكلف أن يؤمن بجميع ما ورد من تلك النصوص المتشابهات، ويعتقد أن لها معانى صحيحة لائقة بجنابه تعالى غير مستلزمة لمماثلته تعالى للحوادث ، ويفوض معرفة حقيقتها المرادة منها الى علم الله ، واذا احتاج الى التأويل فى دفع مذهب مبتدع، أو لرفع الوسوسة عن قلبه ولم يكن أهلا للتأويل فليرجع الى العلماء الأعلام ويفهم منهم تأويل ما أراد تأويله ولا يستقل به وهو ليس أهلا له خشية أن يقع فى خطأ يدخله فى البدعة أو فى الكفر نسأل الله تعالى الحفظ والسلامة

وليعلم أن النصوص المتشابهات التى مر الكلام عليها فى هذا الفصل هي الآيات القرآنية وأحاديث الرسول الثابتة عنه عليه الصلاة والسلام : وأما ما ينسبه الى الرسول عليه السلام بعض أهل الاخبار ولم يثبت عنه عليه الصلاة والسلام بنقل العدول فهذا وأمثاله لا يجب علينا التصديق به فضلا عن الاحتياج الى تأويله . والله تعالى أعلم

الفصل السادس

في بيان ما يجوز في حق الله تعالى ، وبيان مسائل خالفنا فيها أهل البدع

قد تقدم بيان ما يجب لله تعالى وما يستحيل عليه سبحانه، فلنشرح الآن في هذا الفصل ما يجوز في حقه تعالى فنقول: —

يجوز في حقه تعالى فعل كل جائز أو تركه ، مهما كان الجائز عظيما دقيق الصنعة : فالله تعالى قادر على صنعه ، والدليل على ذلك من نصوص الشرع الشريف قوله تعالى « والله على كل شيء قدير » ، والدليل عليه عقلا : أن الله تعالى تام القدرة ، كامل العلم ، وان كل جائز هو قابل للوجود والعدم ، فيكون الله تعالى قادراً على إيجاده وإعدامه ، والذي يوضح جواز فعله تعالى لكل جائز أو تركه مهما كان الجائز عظيما دقيقا ما نشاهده في هذا العالم : من عظائم مصنوعاته تعالى ، وغرائب مبتدعاته ، فانه قد تصرف فيها بقدرته إيجادا وإعداما ، نعم قد جرت عادته تعالى بأن لا يوجد خوارق العادات ، أي الامور العظيمة التي لم تجر العادة بوجودها الا على أيدي رسله عليهم الصلاة والسلام معجزة لهم ، وتصديقا لدعواهم الرسالة ، أو على أيدي أوليائه كرامة لهم ، أو على أيدي بعض عباده معونة لهم ؛ أو استدراجا ، أو خذلانا ، كما سيأتي تفصيله — وكل ذلك في النادر

ومن الجائز فى حقه تعالى خلق الخير والشر ، ولا يكون ذلك منه قبيحا ، خلافا لبعض المبتدعة ، لأنه تعالى : فاعل مختار ، يتصرف فى ملكه كيف يشاء ، وربما يكون الشيء حسنا فى نفسه وان خفى علينا حسنه وعددناه شراً ، على أن الشر يكون شرا بالنسبة الينا ، ولذلك نؤاخذ بكسبه ، ومخالفة النهى عنه ، ويكون فعله منا قبيحا ، وأما بالنسبة اليه تعالى فلا يقال : ان السيء الفلانى خير ، والشيء الفلانى شر ، لانه سبحانه لاينتفع بشيء ، ولا يتضرر من شيء ، وأيضا انه كثيرا ما يقع الشر فى الكون ، فلو كان بغير خلقه وارادته تعالى لزم أن يقع كثير فى ملكه ليس بخلقه ، ولابارادته ، وهو عجز وقهر على منصب الالوهية ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

ومن الجائز عليه تعالى أن يفعل غير الصالح وغير الاصلح فى حق عباده ، ولايجب عليه أن يفعل ذلك فى حقهم خلافا لبعض المبتدعة لانه لو وجب عليه تعالى فعل الصالح والأصلح لعباده لما خلق الكافر الفقير ، المعذب فى الدنيا بالفقر وفى الآخرة بالعذاب الأليم لأن الاصلح له عدم خلقه ، وإن خلق فالاصلح له إماتته صغيرا ، أو سلبه عقله قبل بلوغ سن التكليف لكنه تعالى خلق ذلك الكافر ولم يفعل الاصلح فى حقه : فظهر أنه تعالى لايجب عليه فعل الصالح والاصلح لعباده ، بل هو الفاعل المختار الذى يفعل مايشاء ويحكم ما يريد

ومن الجائز فى حقه تعالى عقلا : أن يعذب المطيع وينعم العاصى

ولا يقبح ذلك منه ، لانه مالك مطلق ، فاعل مختار ، ولانه ان أثابنا فبفضله ، وان عذبنا فبعدله ، ولاتأثير للطاعة فى وجوب الثواب ، ولاتأثير للمعصية فى وجوب العذاب لكن لما ورد فى نصوص الشريعة المحمدية وعده سبحانه وتعالى للمطيع بالثواب ووعيده للعاصى بالعقاب : صار واجبا شرعا أن لايتخلف وعده ، ولاوعيده ؛ لانه لوتخلف ذلك لزم الكذب والخلف فى خبره تعالى وذلك محال . لكن الوعد بالثواب يجب شرعاأن لايتخلف فى حق أحدمن المطيعين لانه نقص والنقص عليه تعالى محال . وأما الوعيد بالعقاب فقد أخرج منه المؤمنون المغفور لهم بالدلائل الدالة على أن الله تعالى قد يغفر لبعض عباده الذنوب ، وأما الكفار فلا يتخلف الوعيد فى حقهم للأدلة الشرعية الدالة على تحتم خلودهم فى النار ، وأما المؤمنون غير المغفور لهم معاصيهم فلابد من نفوذ الوعيد في حقهم ولو بتعذيب واحد منهم ، لئلا يلزم الخلف فى خبره تعالى

ومن الجائز عليه تعالى عقلا أن ينظر بالابصار ، لانه سبحانه وتعالى موجود ، وكل موجود يصح أن يرى ، فهو سبحانه يصح أن يرى ، لكن لم تقع رؤيته تعالى فى الدنيا لغير نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ورؤيته سبحانه فى الآخرة للمؤمنين واجبة شرعا باتفاق أهل السنة والجماعة لنص القرآن ، والاحاديث الشريفة ، ولاجماع الصحابة عليها ، لكن رؤيته تعالى بلا كيف ، وبلا انحصار ، ومعنى

قولنا « بلا كيف » انها بدون تكيفه سبحانه بكيفية من كيفيات الحوادث من نحو المقابلة للرائى ، والجهة ، والتحيز ، لأن الرؤية قوة إدراكية يجعلها الله تعالى فى خلقه لايشترط فيها عقلا مقابلة المرئى ، ولا كونه فى جهه وحيز ، ولاغير ذلك ، وانما جعلت هذه شروطا عادية : يجوز أن يخلق الله تعالى الرؤية بدونها ، ومعنى قولنا « إن رؤيته تعالى بلا انحصار » أى بدون انحصاره تعالى عند الرائى بحيث يحيط به ، لاستحالة الحدود والنهايات له تعالى ، ولا تخالف بين وجوب رؤية المؤمنين له تعالى وبين قوله فى القرآن الشريف « لاتدركه الابصار » لان معنى إدراك الابصار رؤيتها على وجه الاحاطة بحيث يكون المرئى متحيزا بحدود ونهايات ، وهذا لانقول به ، لأنه محال عليه تعالى ؛ وقد خالف فى جواز رؤيته بعض المبتدعة ، وتمسكوا بشبه مردودة عليهم فى الكتب المطولة

ومن الجائز عليه تعالى إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام للخلق فليس ارسالهم واجبا عليه تعالى ، ولا مستحيل ، بل لطف منة تعالى ، وإحسان ورحمة بمحض الفضل ، لما فى ارسالهم من الحكم والمصالح التى لاتحصى : منها معاضدة العقل فيما يستقل بمعرفته ، مثل وجود الاله سبحانه ، وعلمه وقدرته ، ومنها استفادة الحكم فيما لا يستقل به العقل مثل المعاد الجسمانى . والحساب ، ومنها بيان حال الافعال التى تحسن تارة ، وتقبح أخرى من غير اهتداء العقل

الى مواقعها ، ومنها بيان منافع الأغذية ، والادوية ، ومضارها التى لا تفى بها التجربة إلا بعد أدوار وأطوار مع ما فيها من الاخطار، ومنها تكميل النفوس البشرية بحسب استعداداتهم المختلفة فى العلميات ، والعمليات ، ومنها تعليم الصنائع الخفية من الحاجيات ، والضروريات ، ومنهاتعليمهم الاخلاق الفاضلة ، الراجعة الى الاشخاص والسياسيات الكاملة العائدة الى الجماعات فى المنازل والمدن ، ومنها الاخبار بتفاصيل ثواب المطيع ، وعقاب العاصى ، ترغيبا فى الحسنات وتحذيراً عن السيئات ، الى غير ذلك من العوائد ، ثم بعد اعتقادنا بجواز ارسالهم فى حق الله تعالى ، وأنه ليس بواجب عليه : يجب علينا اعتقاد حصول ارسالهم من لدن آدم الى رسولنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى جميع الانبياء والمرسلين وسلم ، وسيأتى بيان كيفية تفصيل الايمان بهم عليهم الصلاة والسلام فى الباب الثانى والله الموفق .

الباب الثانى

في بيان الايمان بالرسل ، والانبياء ، والملائكة ، والكتب
واليوم الآخر . وما يتبع ذلك . وفيه خمسة فصول

الفصل الأول

في بيان الايمان بالرسل والانبياء عليهم الصلاة والسلام

اعلم أن الرسول هو : انسان ذكر حر أوحى الله تعالى اليه بشرع وأمره بتبليغه للخلق وان لم يؤمر بالتبليغ يسمى نبيا فقط وقد تقدم ان ارسال الرسل من الجائز على الله تعالى . ولكن قد حصل منه تعالى ارسالهم تفضلا على عباده لما فيه من الفوائد الكثيرة . والايمان بالرسل هو : أن نؤمن بأن الله تعالى أرسلهم مبشرين ومنذرين ، وأيدهم بالمعجزات الخارقة للعادات ، وان نؤمن بما يجب لهم ، ومايستحيل عليهم ، ومايجوز في حقهم عليهم الصلاة والسلام: فيجب لهم الامانة ويستحيل عليهم ضدها وهو الخيانة ، ويجب لهم الصدق ويستحيل عليهم ضدها وهو الكذب ، ويجب لهم الفطانة ويستحيل عليهم ضدها وهو الغفلة وعدم الفطنة . ويجب لهم تبليغ ما أمرهم الله تعالى بتبليغه

للخلق ويستحيل عليهم ضده وهو كتمان ذلك ، ويجوز فى حقهم الاعراض البشرية التى لاتؤدى الى نقص فى مراتبهم العلية ، وكمال الايمان بما ذكرنا أن يكون مقرونا بالدليل . فنقول فى بيان ذلك :

يجب للرسل عليهم الصلاة والسلام الأمانة ، وهى العصمة ومعناها حفظ ظواهرهم وبواطنهم : من التلبس بمعصية . ويستحيل عليهم ضدالأمانة وهى الخيانة . فهم محفوظون طاهرا : من الزنا ، وشرب الخمر ، والكذب ، وأمثال ذلك : من المنهيات الظاهرة ، ومحفوظون باطنا : من الحسد ، والكبر ، والرياء ، وأمثال ذلك : من المنهيات الباطنة ، وما أوهم من النصوص الشرعية وقوع المعصية منهم : مؤول بتأويلات حسنة مذكورة فى كتب التفاسير ، وشروح الاحاديث النبوية ، فعلى المكلف اذا اشتبه بشىء من تلك النصوص فى حق الرسل عليهم الصلاة والسلام أن يرجع فى تأويله الى العلماء الاعلام . ليفهم منهم تاويله ويكون اعتقاده موافقا لاعتقاد أهل السنة والجماعة ، والدليل على وجوب الأمانه للرسل عليهم الصلاة والسلام واستحالة الخيانة عليهم أنهم لو خانوا بفعل معصية لكنا مأمورين به لأنه تعالى أمرنا باتباعهم : فى أقوالهم ، وأفعالهم ، وأحوالهم من غير تفصيل ، والله سبحانه وتعالى لا يأمر بالمعصية

ويجب لهم عليهم الصلاة والسلام الصدق ، ويستحيل عليهم

ضده وهو الكذب ، أما وجوب صدقهم واستحالة الكذب عليهم فيما يبلغونه عن الله تعالى فالدليل عليه أنهم لو كذبوا فى ذلك للزم الكذب فى خبره تعالى ، لتصديقه لهم ، بالمعجزات ، وهى خوارق العادات التى يجريها الله تعالى على ايديهم تأييدا لهم؛ لأنها نازلة منزلة قوله سبحانه «صدق عبدى فى كل ما يبلغ عنى» ، وتصديق الكاذب كذب وهو محال عليه تعالى ، فيكون كذبهم فيما يبلغون عنه تعالى محالا ، وإذا استحال كذبهم فى ذلك وجب صدقهم فيه وهو المطلوب

وأما وجوب صدقهم واستحالة الكذب عليهم فى غير ما يبلغونه عنه تعالى فالدليل عليه أنهم لو كذبوا لكان كذبهم خيانة تخالف وجوب الأمانة والعصمة لهم ، وقد تقدم الدليل على وجوب الأمانة لهم ، واستحالة الخيانة عليهم صلى الله تعالى وسلم عليهم أجمعين

ويجب لهم عليهم الصلاة والسلام الفطانة ، وهى التفطن والتيقظ ويستحيل عليهم ضدها ، وهو الغفلة وعدم اليقظة . والدليل على ذلك أنهم لو لم يكونوا فطناء وكانوا مغفلين لما أمكنهم اقامة الحجة على أخصامهم ، والمجادلة معهم ، لاقناعهم بالحق ، وهذا يخالف منصبهم الذى أرسلوا به ، وهو : هداية الخلق إلى الحق ، فوجب بذلك لهم الفطانة ، واستحال عليهم ضدها . وهو الغفلة وهو المطلوب

ويجب لهم عليهم الصلاة والسلام تبليغهم للخلق ما أمرهم الله تعالى بتبليغه ، ويستحيل عليهم ضده وهو كتمانهم شيئا من ذلك .

والدليل على ذلك أنهم لو كتموا شيئا مما أمروا بتبليغه للخلق لكنا مأمورين بكتمان العلم ؟ لأن الله تعالى أمرنا بالاقتداء بهم ، وكوننا مأمورين بكتمان العلم باطل ، فكتمانهم شيئا مما أمروا بتبليغه للخلق يكون باطلا ، فوجب لهم تبليغ ما أمروا بتبليغه واستحال عليهم كتمان شيء من ذلك وهو المطلوب

وأما الجائز فى حق الرسل عليهم الصلاة والسلام فهو سائر الأعراض البشرية التى لاتؤدى إلى نقص فى مراتبهم العلية ، وذلك كالأكل ، والشرب ، وجماع النساء فى الحلال ، والأمراض التي لا تخل بمنصب الرسالة ولا تكون منفرة للخلق عن الاجتماع بهم ، والأخذ عنهم ، والدليل على ذلك مشاهدة تلك الأعراض بهم وهى لا تخل بمنصب الرسالة ، وأما الأمراض التى تخل ، أو تنفر عنهم الخلق ، مثل الجنون ، والاغماء الطويل ، والجذام ، والبرص ، والعمى فهى ممتنعة عليهم ، ولم نثبت أن شعيبا كان أعمى ، وما كان بأيوب من البلاء فقد كان ألما تحت الجلد : ليس منفرا ، وما اشتهر فى قصته من الحكايات المنفرة فهى : باطلة

وأما السهو فممتنع عليهم فى الأخبار البلاغية ، أى التى يبلغونها للخلق نحو «الجنة أعدت للمتقين» ، فى غير البلاغية أيضا ، نحو قام زيد ، وذهب عمرو ، لأنه يورث الشبهة لبعض الضعفاء فى عموم أخبارهم وهو ينافى منصب الرسالة ، وأما السهو فى أفعالهم غير البلاغية

والبلاغية : كالسهو فى الصلاة ، فهو غير ممتنع عليهم ، وحكمة وقوعه منهم أن يرى الناس كيف يعملون عند حدوث السهو فى عباداتهم ، لأن دلالة الفعل أوضح من دلالة القول . وأما النسيان فهو ممتنع عليهم فى البلاغيات قولية كانت أو فعلية ، فالقولية نحو « الجنة أعدت للمتقين » والفعلية نحو صلاة الضحى ؛ اذا أمروا بفعلها ليقتدى الناس بهم ، فلا يجوز نسيان شىء من ذلك قبل تبليغ الأولى بالقول ، والثانية بالفعل ، وأما بعد التبليغ فيجوز نسيان ما ذكر من جانب الله تعالى لحكمة يعلمها . وأما النسيان من جانب الشيطان فمستحيل عليهم ؛ إذ ليس للشيطان عليهم سبيل . ووسوسة الشيطان لآدم عليه السلام بتمثيل ظاهرى . والممتنع لعبه ببواطنهم . والملخص أنه يجوز على ظواهرهم ما يجوز على بقية البشر مما لا يؤدى إلى نقص واخلال بمنصب الرسالة ، وأما بواطنهم فمنزهة محفوظة متعلقة بربهم وما يوهم خلاف هذا فمؤول يرجع فى فهم تأويله إلى العلماء الأعلام .

وليعلم أن جميع ما ذكر فى حق الرسل عليهم الصلاة والسلام من الوجوب ، والاستحالة ، والجواز : يلزمنا أن نعتقده فى حق الانبياء وهم : الذين أوحى الله تعالى إليهم بشرع ولم يأمرهم بتبليغه للخلق . لأنه ربما ترجع اليهم الناس فى الاستفتاء عن أحكام شرائع الرسل قبلهم ، ولأنهم مأمورون أن يبلغوا الخلق أنهم أنبياء . ليحترموهم . ولأنهم يعملون بما أوحى اليهم

ثم ليعلم أنه يجب الايمان بجميع الانبياء والرسل اجمالا ، بأن يؤمن المكلف بكل نبى ورسول لله تعالى ، وبما يجب لهم . وما يستحيل ، وما يجوز ، والأولى أن لا يعين عددا مخصوصا لاختلاف الروايات فى عددهم ، وقد قال تعالى « منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك » لكن يجب الايمان تفصيلا بالرسل الذين ذكرت اسماؤهم فى القرآن الشريف ، وقد جمعت اسماءهم الشريفة فى هذه الابيات :

أسماء رسل الله فى القرآن ... خمس وعشرون : فخذ بيانى
هم : آدم ، إدريس ، نوح ، هود ... يونس ، إلياس ، اليسع ، داود
اسحق ، ابراهيم ، لوط ، موسى ... ذو الكفل ، يحيى ، زكريا ، عيسى
شعيب ، ثم صالح ، أيوب ... هارون ، ثم يوسف ، يعقوب
ثم سليمان ، وإسماعيل ... محمد ، ختمهم الجليل

الفصل الثانى

فى شرح معجزات الرسل التى أيدهم الله تعالى بها ،
وبيان طريق وقوعها ، واقامة الحجة بها

علم أنه قد تقدم فى هذا الكتاب أن الجائز العقلى هو : ما يقبل الثبوت والانتفاء ، وأن كل جائز فهو داخل تحت تصرف قدرة الله

تعالى مهما كان عظيما ودقيق الصنع ، وتوضيح ذلك بعد ثبوت أن الخالق لهذه الكائنات هو الله تعالى ما نشاهده من أعماله في هذه المصنوعات ، من العظمة ، والدقة ، والحكمة

ولنشر إلى تفصيل بعض ذلك فنقول : لننظر الى عالم الكواكب وما اشتمل عليه : من العظمة ، والغرابة، وعجيب الترتيب والانتظام، كما يظهر من كتب علم الهيئة التى تكفلت بشرح حقيقة ذلك ، ولننظر الى عالم الجويات وما احتوى عليه ، من الهواء ، والرياح ، والبروق ، والرعود ، والسحاب، والأمطار ، والكائنات الجوية التى أفردت بالتأليف ، وصارت علما واسعا ، ولننظر إلى الارض وما اشتملت عليه ، من الجبال ، والاودية ، والكهوف ، والسهول ، والبحار ، والانهار ، والينابيع ، والمعادن ، والكائنات الارضية : من الزلازل . والتغيرات العظيمة ، ولننظر إلى عالم المعادن وما فيها ، وما احتوى عليه من الانواع المختلفة ، فى الالوان والطعوم ، والخواص ، والمنافع ، ولننظر الى عالم النبات وما فيه من اختلاف الأشجار ، والأزهار ، والأثمار ، المتنوعة فى الألوان ، والروائح ، والطعوم ، والأشكال ، والأقدار والخواص . والمنافع وغرائب توالده ، ونموه ، واقامته ، وسائر أحواله التى أفردت بالتأليف وأصبحت علما من أعظم العلوم . ولننظر إلى عالم الحيوان وما يحويه من العظائم والغرائب : فى اختلافه فى الصغر والكبر ، والقوة والضعف .

والذكاء والبلادة ، وتباين الاشكال والهيئات والاصناف وما فيه من
عجيب التركيب وغريب التأليف وما فى أعضائه من إحكام الصنع ،
وإتقان الوضع ، حتى وفى كل عضو بوظيفته ، واذا نظرنا فى أنفسنا
وما اشتمل عليه الجسد الانسانى من غريب الصنع ، وبديع التركيب
لأخذتنا الحيرة وأدركتنا الدهشة ،وفى الاطلاع على كتب التشريح
الانسانى وما بينته من أعضاء الانسان ووظائفها ، وغرائب أبنيتها
وتراكيبها وانتظاماتها ودقيق صنعها عبرة لأولى الألباب

ومن أغرب ما فى الانسان حواسه : من السمع ، والبصر ،
والذوق ، والشم ، واللمس وأغربها حاسة البصر وما احتوت عليه
من باهر الصنع بوضع طبقات العين وأشكالها وصفاتها وانتظامها
وإحكامها على نواميس كونية حتى وفت بوظيفة الابصار التي تحتار
فى كيفيته الافكار ، وتالله إن العلوم التى تكفلت بالكلام على هذه
العوالم وشرح حقائقها وأحوالها وان تكن قد جاءت بكثير من عجائبها
مما الاطلاع عليها يربى الايمان فى القلوب — لمن وفقه الله تعالى —
ويشهد لصانعها بعظيم القدرة ، وكمال العلم والحكمة ، لكن ما انطوى
عليه من عجائبها ودقائق حكمها وأسرارها هو بحر عجاج لا تدركه
العقول ، ولا نفى بالاحاطة به الروايات والنقول ، فسبحان من كانت
هذه الكائنات بارادته وقدرته ، وتدبيره وحكمته ؟ فبعد التأمل
فى حدوث هذه الموجودات وأنه : لابد لها من صانع هو رب الارض

والسموات نعلم قطعا : أن كل جائز عقلا مهما كان عظيما جسيما وغريبا عجيبا فهو داخل تحت تصرف قدرة هذا الاله القادر العليم الحكيم، ولكن وجدنا أنه سبحانه قد وضع فى تكوين هذه الكائنات وتصوير تلك العوالم أسبابا وقوانين جرت عادته تعالى فى احداث هذه الحوادث عندها فجعل مثلا حدوث النبات بواسطة التراب والماء والحرارة ، وحدوث الحيوان بواسطة انتقال مادته الاصلية من الذكر إلى الأنثى وتنميته فى جوف الانثى بوسائط شتى مع مرور زمن مخصوص على كل من هذين التكوينين ولكن لدى تدقيق النظر والبحث فى الادلة العقلية، وملاحظة عظيم قدرته سبحانه وكمال علمه وتدبر عجائب صنعه: ظهر لنا معشر أهل السنة والجماعة أن جميع تلك الاسباب والقوانين التى وضعها الله سبحانه . وجرت عادته فى إحداث الحوادث عندها ما هي إلا عادية بمعني إن عادته تعالى جرت باحداث الحوادث عندها لا بتأثيرها . وان الزمن الذى خصص لتكونها وحدوثها ماهو إلا عادى أيضا . وهو سبحانه وتعالى قادر على إحداث تلك الحوادث بدون تلك الاسباب والقوانين وبدون مرور ذلك الزمن الذى يكون ظرفا لتكونها وحدوثها ويظهر ذلك لمن تأمل أن التراب والماء والحرارة لا يظهر فيها أدنى داع لأن تصور أنواع النباتات من كل نوع منها على لون . وطعم . ورائحة وشكل خاص، وليس عندها قدرة ، وعلم . وإرادة . حتى لها التصرف

فى أنواع النباتات ذلك التصرف العجيب الغريب ، وأيضا انا نجد بعض أنواع النبات مشتملا على دقائق من الصنعة ، وغرائب من الوضع قد يحدث فى زمن قصير جدا ، ونجد نوعا آخر بسيط التكوين : ليس فيه تلك الدقائق ، ولا يحتوى على تلك الغرائب ، قد يحدث فى زمن طويل ممتد ، وهذا تنبيه من الحق تعالى على أن الزمن ليس شرطا متوقفا عليه التكوين توقفا لازما عقلا ، بل ان ذلك الزمن لم يجعل ظرفا للتكوين إلا عادة جرت للحق تعالى من غير احتياج اليه . والا فلو احتيج اليه لكان الشيء الأغرب فى الصنعة أطول زمنا من الشيء الذى يكون دونه فى الغرابة

ومما تقرر : ظهر أن الله تعالى الذى أحدث هذه الكائنات قادر على إحداثها بدون تلك الشروط والاسباب والأزمنة الموضوعة لتكونها : فيجوز أن يوجد الله تعالى نباتا فى لحظة طرف أو أقل بدون تلك الأسباب التى جرت عادته أن يحدث النبات عندها ، وقادر على إيجاد حيوان كذلك ، وعلى قلب الجماد نباتا ، أوحيوانا فى لحة طرف ، وإحداث أعظم من ذلك من خوارق العادات ، ولكن ذلك منه سبحانه لم يكن مطردا ، بل قد يجريه على يد رسول من رسله معجزة مصدقة له بدعوى الرسالة ، كما قلب عصا سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ثعبانا ثم أعادها عصا فى زمن يسير ؛ وهكذا نوجه جميع خوارق العادات التى نقل لنا وقوعها معجزات للرسل

عليهم الصلاة والسلام جرت على أيديهم تصديقا لهم : مثل انفلاق البحر ، وانشقاق القمر ، وكلام العجماوات ، ومجيء عرش بلقيس في لمحة طرف ، وبعد ذلك كله فانك ترى بعض من استولت الغفلة على قلوبهم قد سترت عنهم عظمة مصنوعات الله تعالى المتادة لديهم وغرابتها لكثرة مشاهدتهم لها ، ويعجبون من حدوث شيء نادر الوقوع لم تجر العادة في بروزه لدى حواسهم ، وربما يكون هذا الشيء في العظمة ، ودقة الصنعة دون ماجرت العادة بحصوله وألفته أنفسهم ، وما ذلك إلا لعدم اعتيادهم على مشاهدة ما ندر وقوعه حتى ربما

كذبوا من يخبرهم به أشد التكذيب وان كان ثقة عندهم ، مثلا : تراهم يعلمون أن التراب ينقلب نباتا ، ثم غذاء ، ثم دما ، ثم نطفة ، ثم بعد انتقاله لرحم الأنثى ينقلب علقة ، ثم قطعة لحم ، ثم تتصور حيوانا سميعا بصيرا شاما ذائقا لامسا ، ثم يخرج من بطن الأنثى : ضعيف العقل والقوى ، ثم يصير قويا صلبا ولبيبا حاذقا وعالما مدققا ويقول أنا وأنا ، وماجسده إلا قبضة تراب وسيعود كما كان ومع ذلك : لا يعجبون من جميع ما جرى في هذه التحولات والاطوار ؟ واذا أخبرهم مخبر أن فلانا الرجل الصالح قد شفى الله تعالى فلانا المبتلى البرص على يديه بمجرد أنه لمسه ودعا له : تجدهم قد عدوا ذاك من المحال ، وحسبوا الخبر به من خرافات الاقوال ، ولو كان المخبر من أصدق الرجال ، والحال أن شفاء ذاك الابرص على ذاك الوجه ليس باعظم من تكون الانسان

بتلك الأطوار العجيبة بل دونه فى العظمة بكثير . وليس الفرق بين الامرين إلا أن الأول قد جرت به العادة والثانى ليس كذلك، ولكن مادمنا نعتقد أن الموجد لكلا الأمرين هو الله القادر العليم الفاعل المختار فأى داع يدعو للاذعان بالاول والانكار للثانى؟ نعم لو أن الدعوى أن ذلك الرجل الصالح قد أوجد شفاء الابرص بقدرته كان للانكار وجه ، وذلك لعدم صلاحية قدرته لاحداث هذا الشفاء ولكن الدعوى : أن الله تعالى قد شفى الابرص على يديه كرامة أكرمه بها فلا وجه للانكار ما دام المخبر صادقا موثوقا به ونسب ذلك التاثير لله تعالى الذي هو قادر على كل جائز وهذا الأمر كان من الجائزات

اذا احط علما بجميع ماقررناه : فاعلم أن الله تعالى لما أرسل الرسل للخلق أيدهم بالمعجزات لتكون دليلا صدقهم فى دعواهم الرسالة: والمعجزة هى أمر خارق للعادة يظهر على يد مدعى الرسالة من الله تعالى ، فالرسول عندما يدعو القوم الذين أرسل اليهم الى تصديقه وامتثال الشرع الذى يبلغهم إياه عن الله تعالى لابد أنهم يريدون منه دليلا على صدق دعواه فيقترحون عليه خرق العادة فى الأمر الفلانى والامر الفلانى : من نحو انشقاق القمر، وخروج ناقة من الصخر، وغير ذلك فالله سبحانه وتعالى يخرق العادة على يد ذلك الرسول ويوجد ما اقترحه عليه أولئك القوم ، وحينئذ : يظهر لهم صدقه فى دعواه ويصدقونه فيما جاء به من عند الله تعالى؛ لانهم يلزمهم أن يقولوا حينئذ

فى الاستدلال : ان هذا الامر الخارق للعادة لايقدر على ابرازه للوجود إلا الاله القادر عليه ولولا أن ذلك الرجل المدعى الرسالة صادق لما أبرز الله تعالى على يديه ذلك الامر الغريب ، فابرازه على يديه تصديق له من جانب الله تعالى بلا ريب : فالمعجزة تكون فى حق ذلك الرسول وفى حق قومه بمنزلة قول الله تعالى « صدق عبدى فى كل ما يبلغه عنى » ونظير ذلك فى رجل ادعى فى حضرة ملك أنه سفير بينه وبين رعيته الحاضرين فى حضرة الملك وعليهم أن يصدقوه فيما يبلغهم عن ملكهم ، فطلب منه أولئك الرعايا ما يدل على تصديق الملك له فى تلك الدعوى فقال : ان علامة تصديق الملك لي فى ذلك أنه يقوم الآن عن كرسيه ويخطو سبع خطوات ويفعل ذلك ثلاث مرات على خلاف عادته ، فبمجرد سماع الملك ذلك قام عن كرسيه وفعل مثل ما قال الرجل ، فلاشك أن القوم الحاضرين يجزمون حينئذ بصدق ذلك الرجل، ويعدون قيام الملك بتلك الكيفية تصديقا له . فيعتمدون جميع ما يبلغهم ذلك الرجل عن ملكهم . ومن يقل بخلاف هذا فهو من الحق بمكان ، أو مكبل بقيود العناد والخسران . وإذا بلغنا الى ههنا فنقول : —

إن المعجزات التى أظهرها الله تعالى على أيدى الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام هى كثيرة جدا ، فانذكر منها ما اشتهر و وذكر فى القرآن المجيد ، أو فى صحيح الأحاديث النبوية . ونشرح

توجيه حصول تلك المعجزات على قانون العقل السليم حتى تندفع شبه المبطلين المنكرين لها من أهل الضلال ، ويزداد بذلك يقين أهل الحق بزيادة الايمان ، ولكن بعد أن نتكلم على أشهر المعجزات المذكورة في القرآن لبعض الرسل نفرد فصلا لمعجزات نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونتكلم على بعض الطرق التى أوصلت اتباعه الى الحظوة بتصديقه ، واتباع طريقه فنقول : —

من المعجزات التى ذكرت فى القرآن الشريف ، معجزة سيدنا موسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام بانفلاق البحر حين ضربه بعصاه حتى مر بنو اسرائيل فيه ونجوا من فرعون ، ثم أهلك الله تعالى فرعون وقومه بانطباق البحر عليهم عند ما أرادوا لحوق موسى وقومه ، فاعلم أن من بلغه خبر هذه المعجزة إن كان منكرا لوجود إله العالم — والعياذ بالله تعالى — فهذا يكون الصواب فى حقه أن نقام له الدلائل على اثبات وجوده تعالى ، واثبات صفاته الجليلة ، ثم بعد ذلك يبين له حال المعجزات ، وان كان مؤمنا بوجود الخالق سبحانه فتى تصور عظمة قدرته ، وتأمل فى عظائم أعماله ، وتصور أن انفلاق البحر ما هو الا جائز عقلى من جملة الجائزات الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى ، لأن العقل يحكم بقبوله للثبوت والانتفاء ولا يلزم من ثبوته محال ، فلا مانع يمنعه من التصديق بذلك ، ومما يوضح جواز انفلاق البحر أن الماء قابل للانقسام كبقية الأجسام .

وقابل للتماسك كما يشاهد تماسكه بالجمود بالبرد مثل مايرى فى الأنهر العظيمة التى تجمد أيام البرد وتمر عليها الحيوانات ، وان كان انفلاق وتماسك ماء البحر بتلك السرعة حتى مر بنو اسرائيل بين قطعه ثم رجوعه الى السيلان سريعا حتى غرق فيــه فرعون وقومه أمورا عظيمة تحتاج إلى قدرة تامة، فالله سبحانه وتعالى تام القدرة فلا يعجزه ذلك ، فنحن معشر المسلمين لما أخبرنا بهذه المعجزة القرآن الكريم على لسان رسول الله سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الذى ثبت صدقه لدينا بالبراهين العديدة ، وهى من الجائزات العقلية الداخــلة تحت تصرف قدرة الله تعالى التامة آمنا وصدقنا بذلك من دون شك ولا ريب ، وكل منصف اذا تأملها لا يجدها من المحالات . والله قادر على احداثها تأييداً لرسوله، وحفظا لعباده المؤمنين ، وإهلاكا لاعدائه الكافرين

ومن المعجزات التى ذكرت فى القرآن المجيد أيضا لسيدنا موسى عليه السلام نبع الماء من الحجر عند ما ضربه بعصاه بأمر الله تعالى فقيل : كان حجراً مخصوصا ، وقيل المراد أى حجر كان . وهنا يقال أيضا : ان من بلغه خبر هذه [illegible] ان كان منكراً للخالق تعالى فقد ذكرنا ما هو الصواب فى حقه . وان كان مؤمنا بوجود الخالق تعالى وتمام قدرته ، وعظيم أفعاله . فيكفيه تصديق هذا الأمر ان يتصور : أن نبع الماء من الحجر [illegible] . لأن [illegible] الله

تعالى يخلق ويبرز من العدم مقداراً من الماء يكفى بنى اسرائيل ثم يجعل سبيل بروزه فى مشاهدتهم من الحجر عند مايضربه موسى . والثانى أن يحول الله تعالى الهواء ماء ، ويجعل سبيل بروزه فى المشاهدة أيضا من الحجر ، وتحول الهواء ماء وعكسه هو من الأمور الجائزة التى دخلت تحت تصرف قدرة الكيماويين ، كما يعلم من فن الكيمياء ، وفى هذا العام قدروا أن يحولوا الهواء سائلا من السائلات فما بالك بقدرة من خلق الكيماويين وجميع أعمالهم ؟ فنحن معشر المسلمين لما أخبرنا بذلك الصادق ، ورأينا أن ذلك من الجائزات الداخلة تحت تصرف القادر سبحانه آمنا وصدقنا به ؛ وبأن الله تعالى أوجده معجزة لسيدنا موسى عليه السلام ، وابقاء لحياة عباده بني اسرائيل الذين أعوزهم الماء فى التيه

ومن معجزات سيدنا موسى عليه السلام المذكورة فى القرآن الشريف : انقلاب عصاه ثعبانا كبيرا ابتلع الحبال والعصى الكثيرة التى سحرتها سحرة فرعون ، وخيلتها للناس حيات ، فهذه المعجزة أيضا يقال فيها : ان السامع بها إن لم يكن مؤمنا بالخالق تعالى ، وبعظيم قدرته ، فقد تقدم ما هو الصواب فى حقه ، وان كان مؤمنا بالخالق تعالى فيكفيه لتجويز وقوع هذه المعجزة تصوره أن مصنوعاته تعالى العظيمة : من عوالم النبات ، والحيوان كلها حدثت بقدرته وتكوينه ، وقد حول موادها من صورة إلى صورة ، فقلب التراب نباتا ،

والنبات حيوانا ، وأن الأسباب التى جعلها فى هذا الكون لحدوث هذه الـكائنات والأزمنة التي جعلها ظروفا لحدوثها ماهى إلاعادية والله تعالى قادر على تلك الأعمال بدون تلك الأسباب ، وبدون تلك الأزمنة ، وأن الله تعالى قادر على إعدام الأجسام أو تفريقها هباء لاتدركها الأبصار . فنحن معشر الأمة المحمدية لما أخبرنا الصادق بحصول تلك المعجزة لسيدنا موسى عليه السلام ، ونحن نعتقد بكمال قدرة الله تعالى عليها ، وعلى أعظم منها من الجائزات آمنا وصدقنا بها وقلنا : لا مانع من أن الله تعالى قلب تلك العصا التى هى جسم نباتى ثعبانا عظيما وكبر جسمه بضم بعض الأجسام الأرضية اليه ، وبعد أن ابتلع الحبال والعصي أعاده عصا بقدر ما كانت وأفني الأجسام التى زادها فى تكبيره وأجسام لحبال والعصى التى ابتلعها . أو فرق جميع ذلك وصيرها هباء لايرى ، وكل ذلك أوجده الله تعالى بدون الأسباب والأزمنة العادية التي شرعها فى الكون لذلك الصنع إذ هو قادر على ذلك ، وكان خرق العادة فى هذا الحال معجزة دالة على صدق رسوله موسى عليه الصلاة والسلام

ومن معجزات سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام التى أخبر بها القرآن المجيد رفع الطور وهو الجبل فوق بني اسرائيل حتى قبلوا الميثاق ، وهذه المعجزة يسلم بجوازها وقوعها من يؤمن بوجود الاله القادر ، ويتأمل فى أعماله العجيبة وأنه كم رفع من اجرام عظيمة جدا

وأقامها فى الفراغ ، وإن قيل على مذهب المتأخرين من الفلكيين : ان تلك الأجرام قائمة فى الفراغ بناموس الجاذبية قلنا : ان من أوجد ذلك الناموس هو قادر على إحداث ناموس نظيره لرفع الطور ، على أن الأسباب التى وضعها سبحانه وتعالى فى هذا الكون ماهى إلا عادية — على ما تقدم بيانه : فهو قادر سبحانه على إيجاد هذه الكائنات بدون وجود أسبابها ، فنحن معشر المصدقين بالقرآن الكريم قد أخبرنا بهذه المعجزة الصادق ، وهي من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف القادرالذى نؤمن بوجوده وبكمال قدرته فنؤمن ونصدق بحصولها بقدرة الله تعالى معجزة لسيدنا موسى عليه السلام ، وترهيبا لبنى اسرائيل حتى قبلوا الميثاق

ومن معجزات سيدنا موسى عليه السلام ارسال الجراد والقمل والضفادع ، والدم ، على قوم فرعون ، وانزال المن والسلوى على بنى اسرائيل فى التيه ، وهذه الأشياء يؤمن بجواز وقوعها من يؤمن بالله تعالى القادر على هذه الأمور وأعظم منها ، وتوضيح جوازها : أنه يشاهد إلى الآن فى هذا الكون ارسال الجراد وغيره من الحيوانات المؤذية : كالديدان ، والفيران على زرع قوم دون قوم ، ويشاهد أن بعض الأقاليم يفسد ماؤها ويورث شربه أمراضا لأهلها ، وبعد البحث عن سببه يظهر أنه قد تولد فى ذلك الماء حيوانات صغيرة جدا

لا تدرك إلا بالمكبرات ، ولعل الدم كان من هذا القبيل ، ويشاهد أيضا أنه قد يقع عوض المطر أشياء لم يعتد وقوعها ويعلل وقوعها أهل البحث بأن ريحا نقلتها من مكان آخر وأنزلتها على آخرين ، فما دام الحال أن جميع تلك الاشياء من الجائزات عقلا المشاهد نظيرها فى أيامنا فما المانع من أن الاله سبحانه أوجدها على يد موسى عليه السلام معجزة له ، وترهيبا للقبط أعدائه ، ورزقا لبنى اسرائيل الذين كانوا فى التيه يعوزهم القوت ، فتفضل عليهم تعالى بالمن والسلوى ، فنحن معشر المسلمين نؤمن بحصول جميع تلك الجائزات على يد موسى عليه السلام بخلق الله تعالى معجزة له كما أخبرنا بذلك الصادق

ومن المعجزات التى ذكرها القرآن الشريف خروج ناقة من صخرة على يد سيدنا صالح عليه الصلاة والسلام عند ما طلب منه قومه ذلك حتى يؤمنوا به . فمن يسمع هذا الخبر ويكون مصدقا بوجود الاله القادر يكفيه للتصديق بجواز ذلك أن يتصور عجائب صنعه تعالى وانه قادر على قلب التراب حيوانا ، وتحويل المواد الى صور مختلفة ، اذ لا مانع من أن الله تعالى صور قطعة من نفس مادة تلك الصخرة من باطنها بصورة ناقة ، وقابلها للحيوانية بصورة النوق . وجعلها حية حساسة ، ثم فلق الصخرة عنها وأخرجها لقوم صالح معجزة له عليه السلام ، فان الاسباب والأزمنة التى جعلها عادته سبحانه فى تكوين الحيوانات ماهي الا عادية . وهو قادر على ايجاد الحيوانات بدونها

وكم يوجد فى باطن الصخور حيوانات مثل الدود لايدرى الباحثون كيف تخلقت داخل الصخر ؟ويوجد حولها نبات دقيق : مثل العفن الذى يظهر على الحيطان الرطبة تتغذى به وكلما رعته نبت غيره ، وقد شوهدذلك ونقله الثقاة ، فما دامهذا جائزا فى مثل هذه الحيوانات فهو جائز فى مثل الناقة ؛ اذ لافرق الا بالكبر والصغر ، وهو لايفيد الاستحالة فى الكبير دون الصغير . فنحن معشر المؤمنين نعتقد بحصول تلك المعجزة ، لانها من الجائزات الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى وقد أخبر بها الصادق ، فهى : حق وصدق بلا ريب

ومن المعجزات التى أخبر بها القرآن المجيد عدم احتراق سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام بالنار العظيمة التي ألقاه فيها الملك الكافر الذى حاجه ابراهيم عليه السلام ، فمن يكن مؤمنا بوجود الاله القادر ويعتقد أن النار لاتحرق بطبعها ، ولابقوة أودعت فيها ، بل احراقها هو بخلق الله تعالى ، وعدم احراقها من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف الاله سبحانه ، وان كان ذلك خلاف العادة ، فلا مانع عنده من تجويز وقوع هذه المعجزة ، ومن ينكر وجود الخالق تعالى ، ويعتقد أن النار تحرق بطبعها فهذا يكون الصواب فى حقه أن يقدم له أولا الدلائل الدالة على وجود الاله سبحانه ، وعلى قدرته على كل الجائزات ويوضح له أن النار ليست محرقة بطبعها بل بخلق الله تعالى الاحراق عندما تمس شيئا قابلا للاحتراق ، اذ لاموجد فى نفس حقيقتها يقتضى

أن تحرق الاجسام ، لانه ان قيل : إن موجب احراقها هو النور الذى فيها وهو مولد الحرارة المحرقة قلنا : هذا نور الحباحب ، وهو الحيوان الصغير الذى يوجد فى الليل على النباتات وفى مؤخره نور يسطع ، والمادة التى ينبعث منها ذلك النور مادة حيوانية فسفورية لاحرارة فيها ولا احراق ، وكذلك كثير من المواد الفسفورية كما يعلم من فن الكيمياء ، وان قيل : ان موجب الاحراق فى النار هو اتحادالعناصر الذى تتكون النار بسببه على زعم الكيماويين المتأخرين قلنا : نطلب البيان الكافى ، لم كان هذا الاتحاد موجبا للاحراق دون جميع الاتحادات التى تحصل بين العناصر والاجسام الكيماوية ؟ كما يعلم من فن الكيمياء ، وان قيل : ان موجب الاحراق هو الحركة المخصوصة للاجزاء الفردة للجسم مع الاجزاء الفردة للأكسجين أحد جزئى الهواء كما يقول أيضا المتأخرون من الكيماويين ، قلنا : نطلب التوضيح الشافى ، لم كانت هذه الحركة موجبة للاحراق دون جميع الحركات التى تحصل بين أجزاء الاجسام المتحدة على قول أولئك الكيماويين ؟ ولم لم تكن حركة أجزاء الجسم الذى تنشأ عنه البرودة المفرطة حتى يجمد بها الماء موجبة للاحراق ؟ ولم خصت الحركة الأولى بالحرارة والاحراق والحركة الثانية بالبرودة والتجميد ؟ فبهذا يظهر أن الخصم لايسعه الا أن يقول : لاأدرى لا أن كلا قد خص بما ينشأ عنه ولابد من مخصص فنقول له : نحن نعم ذلك

المخصص : هو الله تعالى الذى خص ما شاء بما شاء ، فاحراق النار ليس الا بخلقه وإيجاده ، وليس فى النار شيء يقتضى أن يؤثر بالاحراق ولا بسواه بل هى مسخرة تحت تصرفه سبحانه وتعالى ، إن شاء أنشأ عنها الاحراق والاعدام ، وان شاء أنشأ عنها البرودة والسلام : نعم قد جرت عادته سبحانه في هذا الكون أنه جعلها محرقة بخلقه وإيجاده فاذا أراد خرق العادة بعدم خلق احراق فيها فلا مانع يمنعه ولا حجر عليه ، وقد أشار سبحانه الى خرق العادة فيها معجزة لسيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام بما تلاه علينا فى القرآن المجيد :من قوله فى خطاب النار : « يانار كونى برداً وسلاما على ابراهيم » وهذا كناية عن أنه تعالى لم يخلق فيها الحرارة والاحراق بل خلق ضد الحرارة فيها وهو البرودة وجعلها سلاما وأمانا لابرودة مهلكة ، فنحن معشر المؤمنين لما أخبرنا الصادق المصدوق بهذه المعجزة آمنا وصدقنا بحصولها ، ولا مانع يمنع من تصديقها ، وهي من جملة الجائزات الداخلة تحت تصرف خالق الارض والسموات

ومن المعجزات التى ذكرت فى القرآن الشريف ما جرى على يد سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام من شفاء الابرص ، والاكمه ، وإحياء الموتى : باذن الله تعالى : فمن كان مؤمنا باله العالم سبحانه، وتصور عجائب أعماله : من تحويل التراب الى حيوانات متنوعة لا يمتنع من تجويز إحياء الموتى بقدرته تعالى ، وشفاء المرضى ، وابراء الاكمه

معجزة لسيدنا عيسى عليه السلام ، فان هذه المذكورات من الجائزات العقلية ، وهى فى نظر العقل أسهل من خلق الحيوان من التراب ، وابرازه سميعا بصيرا ، وان كان كلا الأمرين لدى قدرة الله تعالى على حد سواء ، اذ لا يقال فى حقه تعالى : إن الشىء الفلانى سهل والشىء الفلانى أسهل عليه بل : الجميع تحت تصرفه بالسوية ، والوسائط التى جعلت أسبابا فى حدوث مثل هذه المذكورات ماهى إلا عادية ، وكذلك الزمان الذى جعل ظرفا لحدوثها ، والله تعالى قادر على خرق العادة وايجاد هذه الأمور بدون تلك الأسباب والزمان ـ كما مر بيانه ، فنحن معشر الموحدين قد أخبرنا الصادق بهذه المعجزات وحصولها على يد سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام فآمنا بها وصدقنا

ومن المعجزات التى ذكرها القرآن الكريم ، وجرت على يد سيدنا عيسى عليه السلام أيضا تصويره من الطين : كهيئة الطير ونفخه فيه فيصير طيرا باذن الله تعالى ، فما دمنا نعتقد أن الله تعالى هو الذى خلق جميع هذه الحيوانات الموجودة في الدنيا على تنوع أنواعها من التراب ، وأن الأسباب التى وضعها لتكونها ، والزمن الذى جعله ظرفا لتصورها كل ذلك أمر عادى . والله تعالى قادر على ايجاد ذلك بدون تلك الأسباب وذلك الزمان ، فلا مانع يمنعنا من تجويز وقوع تلك المعجزة الخارقة على يد سيدنا عيسى عليه السلام بخلق الله

تعالى كما قال سيدنا عيسى عليه السلام «باذن الله» وحيث قد أخبرنا بذلك الصادق المصدوق فقد آمنا وصدقنا بحصوله معجزة مؤيدة لدعوى ذلك الرسول الكريم

ومن المعجزات الذى أخبر بها القرآن الشريف ، وجرت على يد سيدنا عيسى عليه السلام نزول مائدة من السماء ليأكل منها أصحابه الحواريون رضى الله تعالى عنهم ، وذلك أمر جائز ؛ اذ لا مانع يمنع العقل من التصديق بنزول أى جسم كان من جهة السماء كما نرى الأمطار وبعض أجسام أخرى تخبر بها علماء الارصاد ، وما دمنا نعتقد بقدرة الله تعالى على خلق جميع الأجسام . فالله سبحانه وتعالى قادر على خرق العادة ، وخلق المائدة وانزالها من السماء على سيدنا عيسى عليه السلام وأصحابه معجزة له وتأييدا لدعواه ونحن آمنا بوقوعها لأخبار الصادق بها

ومن المعجزات المذكورة فى القرآن الكريم تسخير الشياطين والريح لسليمان ، وإلانة الحديد لداود عليهما الصلاة والسلام، فكل ذلك من الجائزات العقلية التى لا يحكم العقل باستحالتها داخلة تحت تصرف الاله القادر فالشياطين من جملة عبيد الله تعالى قابلون للتسخير مقهورون تحت أمر خالقهم سبحانه ، والريح انما تسييرها وتصريفها فى الاكوان بقدرته عز وجل ، والحديد معدن قابل للالانة وان جرت عادة الله تعالى فى إلانته بسبب الحرارة ولكن ذلك سبب عادى

والله قادر على إلاتته بدون ذلك السبب ، فلا مانع من ايجاد الله تعالى لهذه الخوارق على يد هذين الرسولين الكريمين معجزة لهما ، وتأييدا لدعواهما الرسالة، ونحن معشر أهل الايمان المصدقين بقدرة الله تعالى العظيم الشأن ، وبجواز هذه الحادثات ، وبصدق القرآن المجيد قد آمنا وصدقنا بحصولها بدون شك ولا ريب وهي بالنسبة لأعمال الله تعالى المشتملة على أعجب العجائب وأغرب الغرائب لا يستبعد العقل السليم منها شيأ ، والله الهادى الى سواء السبيل

وبقيت معجزات للرسل عليهم الصلاة والسلام سنذكر بعضا من مشهورها فى الفصل الآتى لمناسبة بينها وبين معجزات سيدنا محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام

الفصل الثالث

في بيان معجزات نبينا سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبيان بعض الطرق التي كانت برهانا على صدق دعواه

من أعظم المعجزات التي جاء بها سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام القرآن الشريف ، فهو المعجزة الباقية إلى انقضاء الدنيا ، بخلاف بقية المعجزات فان كلا منها قد انقضى بحينه ، ولشرح هذه المعجزة العظيمة ، والخارقة الجسيمة على وجه يفهمه الخاص والعام ، ولا يعتريه شبهة لدى الافهام ، فاعلم أن من حكمة الله تعالى البالغة أنه قد يؤيد رسله بمعجزات من قبيل ما فاق وبرع فيه القوم المرسل اليهم حتى تنقطع حجتهم عن رسولهم : بانا نجهل جنس ما جئت به من خارق العادة فلعلك تعلم طريقا في ايجاده لا نعلمها نحن ولا يكون في الحقيقة إلا أمرا معتادا : مثلا عند ما أرسل الله تعالى سيدنا موسى عليه السلام : كان فن السحر شائعا في القبط قوم فرعون ، وهم فيه المهارة التامة ، ويعلمون ما هو الممكن للبشر معرفته وصنعه منه وما لا يكون في طوقهم ، فلما سحر السحرة منهم الحبال والعصى بأمر فرعون ، وصارت ترى حيات تسعى ألقى سيدنا موسى عليه السلام عصاه باذن الله تعالى فقلبها الله تعالى ثعبانا عظيما فابتلعت تلك الحيات الكثيرة ،

ثم لما أخذها بيده عادت عصا كما كانت ، فخر السحرة ساجدين لله تعالى ، وآمنوا برسالة موسى، وصبروا على تعذيب فرعون لهم وقتلهم بالصلب فى جذوع النخل، وما ذلك إلا أنهم — لمعرفتهم فن السحر ، وعلمهم بمقدار ما يدخل منه فى طوق البشر وما لا يدخل : أيقنوا أن تلك الخارقة وهى انقلاب العصا ثعبانا كبيرا ابتلع الكثير من الحبال والعصى المسحورة على صورة الحيات ثم عاد عصا كما كان ، وتلك الحبال والعصى عدمت وتلاشت من الوجود ، ماهى من نوع السحر ، وليس فى طوق البشر الوصول إلى هذه الدرجة منه فآمنوا بأنها من خوارق العادات التى لا يقدر عليها إلا رب الأرض والسموات ، ووجدها معجزة لموسى مؤيدة لدعواه الرسالة ، ومن لم يكن من أهل المعرفة فى فن السحر يمكنه الاستدلال على صدق سيدنا موسى عليه السلام بسبب تصديق أولئك السحرة له بأن يقول : إن هؤلاء السحرة لاشك أنهم متمسكون بدين آبائهم وأجدادهم ، ومتعززون بسلطنة فرعون ، ويخافون من مخالفته الهلاك ، ثم لهم الدراية فى فن السحر وبمقدار ما يدخل فى طوق البشر منه وما لا يدخل ، فلولا أنهم علموا يقينا أن تلك الخارقة التى ظهرت على يد موسى ليست من نوع السحر ولا يدخل فى طوق البشر الوصول اليها لما آمنوا بموسى ، وتركوا دينهم ودين آبائهم ، وزهدوا فى عزة فرعون ، ورضوا بالتعذيب والصلب فى جذوع النخل . فقالوا لفرعون : « فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا » فإنهم

بموسى مع ذلك كله أعظم دليل على صدقه بدعوى الرسالة ، وأن تلك الخارقة أظهرها الله تعالى على يده معجزة شاهدة بصدقه ، وأما من لم يرد الله تعالى فيه خيرا كما وقع لفرعون فانه ضل عن هذا الاستدلال واتبع طريق الشبهة ، وقال للسحرة: « انه » يعني موسى (كبيركم الذى علمكم السحر » وهى شبهة باطلة ، إذ لا يخفى أن موسى من بنى اسرائيل الذين كانوا مستعبدين للاقباط قوم السحرة أصحاب السلطنة والملك فلا داعى يدعو أولئك السحرة إلى مخالفة فرعون باتباع موسى ، ولو فرض أنه هو الذى علمهم السحر كما قال فرعون أيصدق العقل أنهم يقدمون على ذلك لمجرد تعلمهم منه ، ويقبلون الذلة بعد العز ، والقتل والصلب عوض الحياة ، وهم عقلاء يميزون الخير من الشر؟فلولا اعتقادهم الجازم بأن تلك المعجزة ليست من نوع السحر ، وهى دالة على صدق موسى فى دعوى الرسالة ، وانهم وان فارقوا عز الدنيا وعدموا حياتها الفانية ، فسيعوضون بعز الآخرة وحياتها الأبدية، لماأقدموا ذلك الاقدام ، وقبلوا ماقبلوا: فشبهة فرعون أضعف من بيت العنكبوت ، وقد جاء بها : إما تكبرا وعنادا ، وإما جهلا وشقاء ، وكذلك لما بعث الله تعالى سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام كان فن الطب شائعا فى بنى اسرائيل ، فكان من حكمته تعالى أن جعل الكثير من معجزاته عليه السلام من قبيل أعمال أهل الطب ، فأبرأ على يديه الأبرص ، والأكمه ، وأحيا الموتى، فأهل المعرفة فى علم

الطب لا يحتاجون فى تصديق رسالته إلى أمر صعب ، بل من الواضح لديهم أن يقولوا : إننا نعلم أن فن الطب ومقدار ما يمكن الانسان أن يبلغه فيه من الأعمال وما لا يمكنه : فيدخل فى طاقة الأطباء الحذاق أن يشفوا الأبرص ، لكنه بمعالجة مخصوصة مع مرور زمان مخصوص ، وأما شفاؤه فى الحال بمجرد لمسه ، أو الدعاء له فهذا : ليس فى طوقهم ، ويمكنهم أن يشفوا مرض الأعين الذى يكون عرضيا ليس مخلا بجوهر البصر ، وأما شفاء الأكمه عديم البصر : فهذا ليس فى طوقهم ، واحياء الموتى أيضا : ليس فى طوقهم ألبتة ، وحيث إن عيسى قد أتى بهذه الخوارق التى ليست داخلة فى طوق البشر كما يظهر لنا من الاطلاع على فن الطب فيكون ذلك دليلا على صدق دعواه الرسالة ، إذ أن تلك الخوارق ليست الا بايجاد الله تعالى القادر على كل شىء ، أجراها على يد عيسى معجزة له مؤيدة دعواه ، وأما غير أهل المعرفة فى فن الطب فلهم أن يستدلوا على صدق عيسى بتصديق هؤلاء الأطباء : نظير ما استدل من آمن بموسى ولم يكن من أهل المعرفة فى فن السحر ، لما شاهدوا ايمان السحرة به

اذا علمت جميع ماقررناه : فاعلم أنه قد نقل الينا بالتواتر المفيد لليقين ، أى نقل الينا الجماهير الكثيرة الذين لا يحصى عددهم ، ويحيل العقل تواطؤهم على الكذب ، كما أنه مثلا تواطؤ الناس جميعا على الاخبار بوجود مكة والحال انها غير موجودة عن الجماهير الكثيرة كذلك . وهم جرا عن

الجماهير الكثيرة كذلك الذين شاهدوا سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ورأوه رأى العين ، وأحاطوا بأحواله وبما جرى له فى مدة حياته مع الأمم ، حتى تم له تصديق الألوف من أتباعه بكل ماجاء به أنه بعد مامضى له من العمر أربعون سنة بين قومه وقد عرفوه بالصدق والامانة حتى دعوه « محمدا الأمين » ولم يجر له فى تلك المدة تعلم القراءة والكتابة ، ولم يجتمع مع أهل هاتين الصنعتين اجتماعا يمكنه معه أن يتعلمهما منهم ، ويؤهله ذلك لاكتساب جملة معارف الأمم ، وشرائع الاقدمين ، وقوانين الممالك ، ولم يعثر عليه فى تلك المدة أنه كان يعانى شيأ من ذلك ، وكذلك لم يجر له فى تلك المدة ممارسة صناعة الفصاحة والبلاغة ، فلم يكن له عناية بالاشعار ، والخطب ، والرسائل العربية : لاقولا ولا رواية ، ولم يكن مولعا بمحاورة الفصحاء ، ومغالبة البلغاء من كل مايقوى فيه ملكة تينك الصنعتين الشريفتين ، ويؤهله الى بلوغ الدرجة القصوى فيهما : قام بين جماهير العالم من عرب وعجم ، مع قلة ذات يده ، وفقد الناصر والمعين : وليس في آبائه سبق سلطنة قد زالت فيظن به انه يريد استردادها بالتحيل على الرياسة ، فادعى أن الله تعالى قد أرسله الى الناس كافة ليبلغهم ماشرعه لهم : متكفلا بنجاحهم فى الدنيا والآخرة ، وأن هذا الشرع يناسب زمانه الذى أرسل فيه الى مضاء هذه الدنيا ، وهو ناسخ لكثير من أحكام شرائع الرسل الذين رسلوا قبله فى الزمان الماضى الذى كانت تلك الاحكام المنسوخة

تناسبه ، وانه ينهاهم عن عوائد وأخلاق قبيحة مضرة بصالحهم ، ورثوها عن آبائهم ، أو زينها لهم الشيطان ، وأقبح شيء منها عبادة الأوثان ، والنيران ، والأحجار ، والأشجار ، وأنه يأمرهم بتوحيد الله تعالى ، واعتقاد اتصافه بصفات الكمال ، وتنزهه عن صفات النقصان ، وافراده تعالى بالعبادة ، وأداء شكره على نعمه التى أنعمها عليهم ، وبالحقيقة ذلك الشكر عائد بالمنافع اليهم : كخضوعهم له فى الصلوات الناشيء عنه تهذيب نفوسهم ، ووصلتهم مع خالقهم ، وكزيارتهم الامكنة التى وعدهم عندها غفران السيئات ، الى غير ذلك من كل ما يجلب لهم الخير ، ويدفع عنهم الضير ، فعند ما سمع منه أولئك الجماهير هذه الدعوى العظيمة نفروا من قبول دعواه ، وعادوه أشد المعاداة ، وهجره منهم الاهل والخلان ، وكذبه الشيوخ والشبان ، وتحول له الاوداء أعداء ، والموافقون أخصاما ألداء ، ثم أخذوا فى مجادلته ومخاصمته ، وجرهم منهج المجادلة إلى طلب الحجة : وصار كل منهم يطلب منه برهانا على صدق دعواه ، ويتمحل له التعجيز فى كل ما يهواه ، وهو صلى الله تعالى عليه وسلم ينصب لهم الدلائل ، ويجيب منهم كل سائل

ومن أعظم الحجج التى استند فى اثبات دعواه اليها ، وجعل معظم اعتماده عليها ما تلاه عليهم من مجموع كلام عربى يسميه «قرآنا» ويقول : إنه من عند الله تعالى أرسله به اليهم ، وهو مشتمل على التصريح بأنه رسول الله تعالى الى الناس كافة . وأنه صادق فى كل

ما يبلغه عنه تعالى وهو متكفل ببيان الشرع الذى شرعه الله تعالى لهم ، وأنه يتحداهم بأقصر جملة منه يسميها سورة بمعنى أنه يستدل على أنه من عند الله تعالى بعجز فصحاء أهل اللسان العربى وبلغائه عن الاتيان بما يساوى أقصر سورة منه : بفصاحتها وبلاغتها ، وقد كان فى الامة العربية أمراء الفصاحة والبلاغة العربيتين الرائج فى ذلك الزمان سوقهما بين أهل تلك الامة ، فكانتا أعظم علومهم ، وأكرم مفاخرهم ، وهم أكثر الناس شاعرا وخطيبا ، وفيهم العالمون باساليبهما ، الحاملون أعلامهما ، والمحيطون بأسرارهما ، وبما هو فى طوق البشر من مراتبهما وبما ليس فى طوقهم : ولم يزل صلى الله تعالى عليه وسلم يصفهم بالضعف والقصور عن معارضة أقصر سورة من ذلك القرآن ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، منوها بذلك فى كل محفل ، مشهرا له فى كل جحفل ، ومع ذلك يسفه أفعالهم فى عاداتهم وعباداتهم ، ويطعن فى معبوداتهم التى عبدوها بضلالاتهم ، فأخذ علماء الفصاحة والبلاغة منهم وأمراؤهما بينهم يتأملون فى ذلك القرآن ، ويسبرونه بمسبار النبيان ، ويتدبرونه تدبر الناقد البصير عسى أن يتبين لهم طريق [illegible] [illegible] ، [illegible] حجته ، فلا وربك ما وجدوا ولن يوجد [illegible] إلى الآن إلى انقضاء الزمان ، مع وفور الفصحاء والبلغاء [illegible] الألداء ، نقول هذا على رؤوس الاشهاد : والقرآن [illegible] فى عده آيات ، وهو يتلى فى كل ناد ، لكن ظهر لهم أن هذا

القرآن قد بلغ مرتبة فى الفصاحة والبلاغة لا تدركها القوى البشرية، ولو أن أحدا كابر وعارض لجاء بالغث البارد ، وأصبح سخرية عند الصادر والوارد ، فتحقق لديهم عجزهم عن معارضته ولو بأقصر سورة منه : فأقر من وفقه الله تعالى منهم بعجزهم بل بعجز البشر ، وبان ذلك دليل على أنه من عند خالق القوى والقدر ، وصدقوا دعوى سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بالرسالة من الله ، وتركوا عاداتهم القبيحة ، وعباداتهم الباطلة ، واعتنقوا ما شرعه الله تعالى لهم واجتباه ، ثم ان كثيرا ممن لم يكونوا من أهل الفصاحة والبلاغة : من الامة العربية أو من سواهم من الاعاجم وجد لهم من الاستدلال بمعجزة القرآن على صدق سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بدعوى الرسالة : ما يقنع أفكارهم ، ويحملهم على اعتناق دينه الشريف ، وذلك بان يقولوا : ان محمدا عليه الصلاة والسلام قد قام بدعوى الرسالة فريدا وحيدا ، مخالفا لجميع العالم فى عادتهم وعبادتهم : لا ناصر له ولا معين ، وقد ادعى عجز فصحاء العرب ، وبلغائهم المشهود لهم بكمال الفصاحة والبلاغة عن معارضة أقصر سورة من قرآنه الذى جاء به ، وهؤلاء مع تمسكهم بعاداتهم وعباداتهم الموروثة عن آبائهم، والمألوفة من لدى نعومة أظفارهم، ومع تعصبهم لعشيرتهم، وبنى جلدتهم ، وليس لدى محمد من حطام الدنيا ما يبعث على رغبتهم فى اتباعه ، ولا هو صاحب عصبية وقوة تخيفهم من بطشه ، لانه فى أول دعواه عاداه

الأهل والأرحام ، بل جميع الأنام ، فقد أقر أولئك الفصحاء البلغاء بعجزهم عن معارضة أقصر سورة من قرآنه ، وأن درجة الفصاحة والبلاغة المحتوى عليها لا تبلغها الطاقة البشرية ، وصدقوا بدعواه الرسالة من عند الله تعالى ، فلولا أنهم قد تحقق لديهم — على ماعندهم من كمال المعرفة في فن الفصاحة والبلاغة أنهم عاجزون عن معارضة قرآنه ، وأن ذلك القرآن لم يكن الاتيان به في طوق البشر ، وهو دليل على أنه من عند الله تعالى لما آمنوا بمحمد وتركوا عاداتهم وعباداتهم الموروثة المألوفة ، ولا رغبة هناك لهم في حطام ، ولا خوف من انتقام ، ولا يخفى : أن أصعب شيء على العاقل مفارقة دينه الذي يرجو به النجاة في الدنيا والآخرة ، وأصعب شيء بعد ذلك عليه مفارقة عوائده التي ألفها وتلقاها عن أسلافه ، حتى : ان البعض وان استشعر برداءة عوائده يصعب عليه مفارقتها ، وتحكم عليه نفسه بملازمتها ، فالعاقل لا يفارق دينه الا اذا تيقن النجاة في دين سواه ، ولا يهجر عوائده لا سيما الموروثة المألوفة الا بسبب قوى قاهر ، فحال هؤلاء القوم الفصحاء البلغاء مع محمد وايمانهم به على هذا الوجه هو دليل لنا كاف لتصديقنا اياه فيما ادعاه من الرسالة من عند الله تعالى ، وليس ايمان هؤلاء الفرقة بالتقليد لفرقة الذين هم أهل معرفة بالفصاحة والبلاغة ، بل ايمانهم بطريق استدلالي — كما هو ظاهر ، وهذا الطريق وأمثاله

كلفت الاعاجم بالايمان برسالة نبينا عليه الصلاة والسلام وان لم يعرفوا لسانه العربي

ثم ليعلم : أن في القرآن استدلالا على صدق سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فى دعوى الرسالة من طريق غير طريق اشتماله على الفصاحة والبلاغة اللتين أعجزتا فصحاء العرب وبلغاءهم ، وهو أيضا معجزة من هذا الوجه : خارقة للعادة لا يمكن البشر الاتيان بها ، وبيان ذلك :أنه اذا تأمل فيه أهل الخبرة فى نقد الكلام ، ومعرفة الصفات الفاضلة فيه ،وذوو المعارف والفنون ، والسياسات ،وتدبروا أساليبه ومحتوياته ، ظهر لهم بالنظر الصادق : أن هذا القرآن قد وجدت فيه خواص فاضلة ، وصفات كاملة : لا يمكن فى العادة اجتماعها فى مجموع كلام مهما تأنق فيه واضعه ، واتسع اطلاعه على الماضى والحاضر والمستقبل ، وأحوال الأمم فى شؤونها أجمع ، والاحاطة فى جميع الفنون ، والآداب ، والحكم ،والسياسات ، وتحرى فيه عدم المناقضة والتضارب ، وحسن الاسلوب ، مع الانفراد عن الاساليب المعهودة عند العرب الا أن يكون القائل : هو الله تعالى القادر على ذلك كله . وعلى جمعه فى كلام يريد جمعه فيه ، وذلك أنهم يجدون هذا القرآن يخبر عن غيوب مستقبلة تأتى طبق أخباره : كوعده أتباع محمد عليه السلام بدخول مكة آمنين ، فجاء الأمر كذلك ، ويخبر عن قصص الاولين وسير المقدمين كما هى حكاية من شاهدها وحضرها ، ويخبر عن الضمائر من غير أن

يظهر ذلك من أصحابها بقول أو فعل ، كما يعلم من حوادث حدثت لبعض أتباع محمد عليه السلام ولبعض أعدائه كما جاء فى التفاسير ، وكتب الاحاديث ، وهو مع اتساع مجاله فى كل فن : من أخبار ، وأحكام ، ومواعظ ، وأمثال ، وأخلاق ، وآداب ، وترغيب وترهيب ، ومدح الاخيار ، وذم الفجار ، وتحذير من قبائح السجايا ، ومواقع الدنايا ، وتدبير السياسات ، ومراعاة الأوداء ، ومدافعة الأعداء ، ومجادلة الاخصام ، وتبكيت الطغام ، وإقامة الدلائل على وجود البارى تعالى وتوحيده ، وعلى الحشر والنشر ، ودفع الشبه ، وازالة الريب ، ووصف دار النعيم وأحوال سكانها ، ودار الجحيم وأهوالها ، ووصف عالم السموات ، ومافى العالم العلوى من الآيات : من كواكب ، وأمطار ، وسحائب ، وبروق ، ورعود ، وعجائب ، ووصف الارض وجبالها ، وسهولها ، وبحارها ، وينابيعها ، وأنهارها ، وما اشتملت عليه : من نباتات ، وحيوانات ، ومعادن ، وأزهار ، وأثمار ، وأشجار ، وأطيار ، وظلمات . وأنوار حتى يصح أن يقال : إنه لم يبق علما من علوم الاوائل والأواخر الا صرح به أو أشار اليه ، على أساليب متنوعة ، وطرائق مبتدعة : لم يقع فيه تناقض ، ولم يتخلله تضارب ، خاليا من جميع العيوب ، خارجا بحسن نظمه عن مشابهة كل أسلوب ليس له مثال يحتذى عليه ولا إمام يقتدى به ، فلا هو من نوع القصائد العربية . ولا من الخطب البدوية ، ومع ذلك فهو فى القول

مستحسن ، وفى النفوس مستملح ، وفى الاذواق مستعذب ، وفى القلوب محبوب ، وللاسماع مألوف : كلما تكرر حلا ، ومن أى الافواه سمع علا وغلا ، ولا يصح فى العقل السليم أن تجتمع كل تلك الصفات فيه اتفاقا ، ولا يصدق بالصدفة فى ذلك الفكر الصحيح . فمن الواجب فى حق هؤلاء المتأملين فيه ، والمتدبرين فيما يحويه . واللائق بانصافهم بعد ذلك أن يقولوا : إن الذى ظهر لنا وتحققناه من اجتماع تلك الصفات فى هذا الكلام البديع أنه كلام تعجز عنه قوى البشر . ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، فاتيان محمد عليه السلام به وهو أمى — ومن المحال عادة أن يأتى به أكبر العلماء ، وأحذق الفلاسفة ، وأعظم المؤرخين ، وأكبر السياسيين : دليل واضح على أنه من عند الله تعالى أرسل به محمدا ليكون معجزة له تدل على تصديقه اياه فى دعوى الرسالة

واعلم أن هذا الطريق فى الاستدلال على كون القرآن معجزة أيد الله تعالى بها سيدنا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم قد هدى الله تعالى به كثيرا من أتباعه عليه الصلاة والسلام ، كما هدى بالطريق الأول ، وهو احتواء القرآن على الفصاحة والبلاغة اللتين عجز فصحاء العرب وبلغاؤهم بسببهما عن معارضة أقصر سورة منه ، وقد نزل كل من هذين الطريقين منزل [illegible] عند أهل المعرفة [illegible] الفصاحة [illegible] . [illegible] أصحاب المعرفة [illegible]

[illegible]

الفضيلتين : فله الاستدلال بخضوع أهلهما وتسليمهم بتلك المعجزة الخارقة للعادة حتى فارقوا دين آبائهم وعوائدهم ، واتبعوا سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم فى دينه وهداه — كما تقدم شرح ذلك قريبا ، وبذلك ظهر : أن معجزة القرآن التى أعطيها سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هى معجزة باقية إلى آخر الزمان ، وبقية المعجزات — وان يكن قد انتفع بها من شاهدها ممن كان فى عصر الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وانتفع بها من نقلت اليهم بالنقل الصحيح : كاهل الأعصر التى بعد الرسل — لكنهما لم تبق مشاهدة إلى الآن وبعد الآن ، فلمعجزة القرآن هذه الخاصة من بقاء مشاهدتها على كرور الزمان . وهذا من جملة ما أكرم الله تعالى به سيدنا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم وخصه به عن سائر الرسل الكرام ، لكن الهداية بيد الله تعالى يهدى من يشاء إلى الصراط المستقيم

ومن معجزات سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم التى ذكرت في القرآن الشريف ، والحديث المنيف ، انشقاق القمر فرقتين بطلبه عليه السلام من ربه حينما طلب منه المشركون ذلك فرأى انشقاقه الكثير من أهل مكة إسلاما ومشركين ، وورد إلى مكة جماعات من المسافرين الذين كانوا بعيدين عنها ولكن أفق أمكنتهم مساو لأفقها فأخبروا أنهم رأوا انشقاق القمر في تلك الليلة ، وعدم رؤية أهل الأرض جميعا تلك الحادثة لا ينافى وقوعها ، لأن القمر بسبب

اختلاف الآفاق التى يراه منها أهل الأرض لا يظهر على الناس جميعا فى آن واحد بل كل وقت يظهر لأهل أفق ويخفى عن غيرهم، كما يعلم من فن الهيئة ، وهذه المعجزة من يسمع بها ، ويكون مؤمنا بوجود الاله القادر ، ويتصور أن انشقاق القمر من الجائزات العقلية لا يمتنع عن التصديق بوقوعها بعد صحة نقلها . وتوضيح جوازها : أن القمر ماهو إلا جسم من جملة الأجسام القابلة للانقسام والالتحام وكم يوجد فى أرضنا من انشقاق جبال عظيمة ، وحدوث وديان لم تكن ، والتحام جبال كانت منفصلة ؟ وهذه الحوادث الأرضية وان تكن جرت عادة الله تعالى بايجادها بأسباب يحدثها الله تعالى : من نحو الزلازل ، والصواعق ، والأمطار الغزيرة ، ولكن تلك الاسباب ما هى إلا عادية والله تعالى قادر على إيجاد تلك الحوادث بدون تلك الأسباب ، كما يعلم من كمال قدرته سبحانه وتعالى ، والقادر على التصرف بهذه الأجسام الأرضية تلك التصرفات هو قادر على التصرف فى القمر بالانشقاق ونحوه ؛ إذ لا فرق بينه وبينها فى الجسمية ، وقبول الانشقاق والالتحام ، إلا أن القمر أكبر منها والكبر والصغر : لادخل له فى قبول ذلك وعدم قبوله فى جانب قدرة الله تعالى ، ثم إن الروايات الصحيحة التى نقل لنا فيها تلك المعجزة تفيد أن القمر انشق فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه ، والمراد بذلك أنه صار يرى الرائى أن فرقة منه فوق الجبل أى فى أفقه ، لا بمعنى أنها ذكرت على نفس

الجبل وفرقة دونه أى فى مقابلته لا بمعنى أنها تحت الجبل ، وهكذا يقول الواحد منا : قد رأيت القمر فوق الجبل وخلفه وفوق البحر والحال أن القمر ليس كذلك ، وانما مراده التعبير عن كيفية الرؤية له فلا يقال : إن القمر جسم كبير جدا دون أرضنا بقليل على ما يقوله علماء الهيئة ، فلا يمكن أن فرقة منه توضع على نفس جبل صغير من جبال الأرض ويسعها ذلك الجبل وفرقة منه تكون تحت الجبل بالفعل ، لأن هذا غير مراد ـ كما علمت ، وإنما نصت الرواية على كيفية هذه الرؤية لتفيد أن الفرقتين من القمر قد تباعدتا عن بعضهما حتى لا يكون للمشركين اشتباه فيما لو كانتا متقاربتين فيقولون : إن رؤيتنا انشقاقه هي من غلط الحس والتخيل الذى لا أصل له فى الواقع ، ومن المعلوم : أن القادر على شق القمر فرقتين هو قادر على تباعدهما ذلك التباعد ثم ضمهما لبعضهما ، ثم من غريب ما يحكى عن بعض شروح المدونة أن فرقة منه نزلت لجنبه وخرجت من كمه عليه السلام فهذه الرواية غريبة : لا يجب علينا الايمان بها ، لعدم قوة سندها فلا حاجة لنا فى تأويلها وتطبيقها على قانون العقل ، ومع هذا فيمكن تطبيقها بأن تلك القطعة كانت صغيرة قابلة للنزول والخروج من كمه ، إذ لا صراحة فى تلك الرواية بأنها كانت نصف القمر ، وهذا لا [illegible] ، وقدرة الله تعالى صالحة لذلك ، ونحن معشر المسلمين [illegible] أن انشقاق القمر معجزة لنبينا عليه الصلاة والسلام بالنقل

الصحيح ، وهو من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى : آمنا وصدقنا بوقوع ذلك بلا ريب

ومن معجزاته عليه الصلاة والسلام وقوف الشمس مدة من الوقت وردها بعد المغيب ، وقد روى هذا فى بعض الأحاديث ، وروى أيضا : أن الشمس وقفت عن المغيب ليوشع بن نون عند ما كان مع بنى اسرائيل يقاتل الجبارين ، وذلك معجزة له أيضا ، والاحاديث فى وقوف الشمس وردها وإن كانت آحادية بمعني أن نقلها لم يكن متواتراً قطعى الثبوت بحيث يكفر منكره ، لكن الايمان بذلك هو الموافق لشأن المسلمين ، والأسلم لهم فى دينهم ، فنحن نؤمن به ونصدق ، ووقوف الشمس وردها بعد المغيب وإن كان فى نفسه أمراً عظيما جداً ، ولكنه من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى ، ولا يعد عظيما بالنسبة لعظيم قدرته سبحانه ، وتوضيح ذلك أنه سواء اعتبرنا أن الشمس هى التى تسير أو أن الارض هى التى تدور على محورها وتمر بأوجهها على الشمس كما تقول به الهيئة الجديدة ، فكلا الأمرين لم يكن إلا بقدرة الله تعالي ، فهو الذى يسير الشمس أو يدير الارض مقهورة بقدرته وسلطانه ، والذى يكون قادراً على تحريك كل من هذين الجسمين العظيمين هو قادر على ايقافهما ساعة من النهار أو على عكس حركتهما مدة من الوقت ثم اعادة الحركة كما كانت ولا يلزم على ذلك محال ، وان قيل على

فرض تسليم القول بالهيئة الجديدة ، وأن الارض هى التى تدور لو وقفت الارض عن حركتها أو انعكست حركتها يلزم أن يبقى ماء البحر آخذاً بحركة الاستمرار فكان يفيض على اليابسة ويغرق أهلها ، قلنا : ان القادر على إيقاف الارض أو عكس حركتها هو قادر على سلب حركة الاستمرار من ماء البحر وجعله تابعا للارض فى وقوفها وعكس حركتها فلا يفيض حينئذ على اليابسة ، ولا يلتفت إلى قول بعض الملحدين : انه ليس من حكمة الخالق تعالى أن يوقف ذلك الجسم الكبير المبنى حركته على ناموس عظيم فى الكون وهو ناموس الجاذبية ، كما يقول أهل الهيئة الجديدة لأجل غرض واحد من البشر وهو محمد أو يوشع عليهما السلام ، لأنا نقول : لم يكن ذلك الصنع منه تعالى لأجل مجرد غرض واحد من البشر وإنما هو لحكمة بالغة ، وهى إظهار المعجزة الخارقة للعادة التى ينشأ عنها اهتداء ألوف من الخلق ، ويرجعون بذلك من الكفر الذى يهلك نفوسهم إلى الايمان الذى يحييها الحياة الابدية ، وينشأ عنها تثبيت ألوف وتمكينهم بالايمان ممن آمنوا قبل ذلك ، ويبقى ذكرها ونقلها بين الخلق يتحدث بها الجيل بعد الجيل ، وينتفع بنقلها من أراد الله تعالى هداه ، ويتصور بها عظمة قدرته تعالى وعجيب أعماله : فهذه الحكمة العظيمة توازى فى العظمة حصول تلك الخارقة وتفوقها ، ويليق بها أن تحصل تلك الخارقة لأجلها ، على أن ذلك الملحد نظر إلى مجرد عظمة تلك الخارقة ولو قابلها بعظمة

قدرة الله تعالى لما وجدها شيأً يذكر ، وهذه الخارقة وغرض واحد من البشر عند البارى تعالى على حد سواء فى أن كلا منهما تحت تصرفه ومشيئته ، ولا يعظم شيء منهما لدى عظمته ، وإن كان فى نظرنا القاصر أننا نجد الفرق بينهما عظيما وهما عند الله سيان فى الجواز والامكان ، ثم إنه فى بعض الروايات التى نقلت تلك المعجزة ما يفيد أن الرسول طلب وقوف الشمس أو اعادتها ، فلا يقال على فرض تسليم رأى الهيئة الجديدة بدوران الأرض : انه كان الصواب في حق ذلك الرسول أن يطلب وقوف الارض أو عكس حركتها عوضا عن طلب ذلك فى الشمس ، لأنا نقول على فرض تسليم ذلك : فلا مانع من أن يكون الرسول يعلم حقيقة الأمر ولكنه طلب ذلك فى الشمس بناء على الظاهر والجارى فى رأى الشعب والمألوف بينهم فى الاستعمال ، والله سبحانه يعلم المقصود من طلبه ولا يكون ذلك غلطا من الرسول ، وهكذا نرى أهل الهيئة الجديدة يجرون فى كلامهم على ظاهر مايبدو لأهل لغتهم ، ويجرى فى استعمالهم ، فيقولون : طلعت الشمس وغربت ، وهم يعتقدون وقوفها وحركة الارض ولم نسمعهم يقولون : طلعت الارض أو غربت أو وصلت الارض لمقابلة نور الشمس أو فارقته ، وكل ذلك منهم على حسب الشائع فى الاستعمال وظاهر ماتعطيه المشاهدة ، إذا علمت ماقررناه ، واندفعت عنك تلك الشبه بما حررناه ، فاعلم أننا معشر المسلمين قد آمنا بهذه المعجزة

إذ لامانع يمنع من وقوعها ، والله قادر على ايجادها معجزة مؤيدة لرسله الكرام ، يهدى ويثبت بها الألوف من الأنام

ومن معجزات نبينا عليه الصلاة والسلام التى نقلت الينا فى الأحاديث الشريفة،نبع الماء من بين أصابعه فاستقى منه العدد الكثير، وتكثير الطعام القليل حتى شبع منه الجم الغفير ، فمن يعتقد بوجود الاله سبحانه وقدرته على خلق الاجسام وابرازها من العدم أو قلبها من صورة إلى صورة ، فلا مانع يمنعه من تصديق هاتين المعجزتين ، وتوضيح ذلك : أنه لامانع أن الله تعالى عند طلب الناس من الرسول الماء خلق سبحانه الماء أو قلب الهواء ماء وصار يبرزه للحاضرين من بين أصابع رسوله عليه الصلاة والسلام حتى اكتفى المستقون للماء،وقلب الهواء ماء هو داخل تحت قدرة الكيماويين فى كسبهم ، وقد ورد قريبا فى المجلات العلمية أنهم اكتشفوا قلب الهواء سائلا فما بالك بقدرة خالق الهواء والماء وأهل الكيمياء ؟ وكذلك : لامانع أن يخلق الله تعالى طعاما من جنس الطعام القليل الذى كان فى حضرة الرسول ويضيفه إليه ولم يشاهد الحاضرون ، إلا أن الطعام القليل قد كثر وشبع الكثير منه ، فحيث كان جميع ذلك من الجائزات العقلية وقدرة الله تعالى صالحة لابرازه ، وقد نقل لنا وقوعه معجزة لنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم فقد آمنا وصدقنا به معشر المسلمين

ومن معجزاته عليه الصلاة والسلام شفاء الامراض العضالة على

يديه بمجرد لمسه لاصحابها أودعائه لهم، ورد عين أحد أصحابه بعد ما قلعت فعادت أحسن ما كانت ، وإحياء الميت بمجرد دعائه ، وهذه الخوارق قد نقلت لنا بالاحاديث الشريفة فآمنا بها وصدقنا ، لأنها جائزة وداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى وهو الذى يوجدها على يد رسوله معجزة له ، وتوضيح ذلك : أن شفاء الامراض — وإن كانت عادة الله تعالى فيه هو أن يكون باسباب وفى زمن ممتد ، لكن ذلك أمر عادى والله قادر على ابرازه بدون ذلك خرقا للعادة — كما مر بيانه وارجاع العين المقلوعة وإن لم تجر العادة فيه فانه من الجائزات العقلية ، ولا يحكم العقل باستحالته ، وإنا نرى كثيراً من الاطباء يصلون بعض أجزاء الجسم الحيوانى بعد انفصاله ويلتحم بواسطة العمليات الجراحية ، ورد العين وإن لم يكن داخلا تحت كسبهم وقدرتهم ولكنه داخل تحت تصرف قدرة الله تعالى الكاملة التى لا تقاس قدرتهم بها ، وإحياء الميت فهو من الجائزات العقلية وإن لم تجر العادة به ، وأن القادر على جعل الجماد حيوانا وإعطائه الحس والحركة والادراك هو قادر على إحياء الجسم الحيوانى بعد أن تفارقه الحياة ، فمن يتصور عظمة قدرة الله تعالى وعجائب أعماله : لا يمتنع من تصديق وقوع هذه الخارقة مادامت تنسب لفعله تعالى

ومن معجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم نطق الطفل الرضيع ، والحيوان الاعجم ، والشجر ، والحجر ، وشهادتها له بالرسالة ، وقد

نقل لنا هذا فى الاحاديث الشريفة ، وورد فى القرآن المجيد نظيره ، وهو كلام الهدهد والنملة لسيدنا سليمان عليه السلام ، وهذه الخوارق هى من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى ، وبيان ذلك أن كل شيء فى هذا الكون : من أجسام، وأعراض: كالاصوات وغيرها هو بخلق الله تعالى ، فكلام الانسان الكبير هو لاشك بخلق الله تعالى ، ونفس طبيعته الحيوانية لاتستلزم صفة الكلام ، اذ لافرق بينها وبين طبيعة الحيوانات العجم فى الحيوانية ؛ بل لافرق بينها وبين الجمادات فى أصل الجسمية ، كما أن صورته لاتستلزم صفة الكلام أيضا ، اذ قد يوجد من أنواع القرود مايشابه الانسان فى الصورة تمام المشابهة الا فى اكتساء جلده بالشعر وهذا لايكون فرقا موجبا لتخصيص الكلام بالانسان الكبير ومع ذلك فلا يتكلم ذلك القرد، ولادليل على وجوب انحصار صفة الكلام بالانسان بل قد وجد بعض الحيوانات البعيدة المشابهة عنه قابلة لتعلم الكلام وذلك :كالطير المسمى بالببغاء ، وفيما قررناه : قد ظهر أن نوال الانسان لصفة الكلام ماهو الا بتشريف الله تعالى له بها وان قيل : يمكن أن يكون فى الانسان الكبير شيء خفى علينا ولم يوجد فى غيره هو الموجب له صفة الكلام، ولعله الذي يسمى بالقوة الناطقة ويعد فصلا للانسان، أو تكوين خاص فى مخه كما يقول المتأخرون، قلنا: حصر الموجب للكلام فى هذين غير مسلم ، على أن الثابت عندنا أن مثل هذا

الموجب سبب عادى والله قادر على خلق الـكلام بغير واسطة ، فالقادر على خلق صفة الـكلام فيه قادر على خلقها فى غيره : من الطفل الرضيع ، والحيوان الاعجم ، والجماد ، وان كان هذا خلاف العادة فالله تعالى يخرق به العادة معجزة لرسوله : فيخلق تلك الألفاظ التى وجدت من ذلك الشيء الذى لم نعهده يتكلم ويصدرها عنه ويسمعها الحاضرون فنحن معشر المسلمين قد آمنا بهذه المعجزات لانها من الجائزات الداخلة تحت قدرة رب الارض والسموات

ومن معجزاته عليه الصلاة والسلام التى وردت الاشارة اليها فى القرآن المجيد ، وبينها الحديث الشريف : رميه صلى الله تعالى عليه وسلم وجوه الكفار يوم الحرب بكف من تراب فأصاب عين كل واحد منهم شيء من ذلك التراب وانهزموا ، وهذه الخارقة من الجائزات العقلية ، اذلامانع من وصول شيء من ذلك التراب لعين كل واحد ولكن : ليس فى قدرة أحد من الناس أن يوصله هذا الايصال ويوزعه على أعينهم هذا التوزيع ولكنه فى قدرة الله تعالى ، فهو قادر على فعل ذلك معجزة لرسوله عليه السلام ، وقد امتن عليه بهذه الخارقة التى صرف بها عنه وعن أصحابه الأعداء فقال فى القرآن الشريف مخاطبا له عليه السلام بقوله: « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » يعنى ومارميت حقيقة وأوصلت التراب الى كل عين من أعين الكفار حين رميت ظاهرا ، لان ذلك ليس فى قدرتك ولكن الله هو الذى رمى حقيقة وأوصل حبات التراب لأعين أعدائك المحاربين . فنحن

معشر المؤمنين : نؤمن بحصول هذه الخارقة معجزة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم

ومن معجزات سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم اخباره بالمغيبات سواء كانت حاضرة فى الزمان غائبة عن العيان أو كانت مستقبلة ستأتى ولو بعد مئات من السنين ، وهذه المعجزة بلغت الأحاديث فى كثرة حدوثها حد التواتر المعنوى ، وأفراد حوادثها بحر لاساحل له ، أما إخباره عليه السلام بالمغيبات التى كانت حاصلة فى زمانه وغائبة عن عيانه فذلك : كاخباره بوفاة النجاشى ، وبالظعينة الحاملة الكتاب إلى قريش ، وفى كتب الأحاديث من ذلك شىء كثير جدا تضيق عنه الصحف : فمن أراد الاطلاع على ذلك فليرجع اليها فيرى العجب العجاب؟؟ وأما إخباره بالمغيبات المستقبلة فهو شىء كثير الحوادث ، منه ماوقع فى حياته ، ومنه ما وقع بعد وفاته بعد أزمنة قليلة أو متطاولة ، ومنه ما سوف يقع ، ولنذكر شيأ من هذا النوع مما ورد فى القرآن المجيد ، أو الأحاديث الشريفة ، على وجه الاختصار يظهر به الحق بلا إنكار . فنقول : —

من ذلك ماورد فى القرآن الشريف أن أصحابه يدخلون المسجد الحرام آمنين ، وكانت مكة حينئذ فى أيدى المشركين وهم محاربون له ولأصحابه فدخلها هو وأصحابه عليه الصلاة والسلام . وحقق الله تعالى لهم ذلك ، ومن ذلك قوله فى القرآن : « غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من

بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين » فكان الأمر كذلك ، فبعد أن غلبت فارس الروم غلبتهم الروم فى بضع سنين، أى ما بين الثلاث سنين إلى العشر كما أخبر القرآن ، يعلم ذلك من السير النبوية، والتاريخ ، وفى القرآن جملة أخبار غيبية يعلم بيانها من كتب التفاسير

ومن ذلك ما ورد فى الأحاديث الشريفة كما رواه الشيخان، وأصحاب السنن ، والحفاظ الأئمة : كأحمد ، والشافعى ، وأبى حنيفة ، ومالك : من أنه عليه السلام أخبر أصحابه بالظهور على أعدائهم ، وبفتح مكة ، والقدس الشريف ، والشام، واليمن، والعراق ، وظهور الأمن فى الممالك الاسلامية حتى تصير المرأة تسافر من الحيرة الى مكة لا تخاف الا الله تعالى، فكان ذلك — ولله الحمد — فى حياته وبعد وفاته عليه السلام ، وأخبرهم بما يفتح الله تعالى على أمته وما يأتون من زهرة الدنيا وقسمتهم كنوز كسرى وقيصر فكان ذلك ، وفتحت أمته بلاد كسرى وقيصر وقسمت خزائنهما بينهم وأخبرهم أنه يغدو أحدهم فى حلة ويروح فى أخرى، وتوضع بين يديه صحفة وترفع أخرى ، يعنى تفيض عليهم الدنيا ويأخذون بالتنعم بعد قشف العيش الذى كانوا فيه ، وكان الامر كذلك ، وهذا ، وضع صحفة ورفع أخرى : تحقق فى كيفية تناول الطعام الذى يسمى فى اللغة التركية « قالدر » وأخبرهم أنهم يقاتلون الخزر والروم، وبذهاب كسرى وفارس حتى لا كسرى ولا فارس بعده وكان الامر على ما أخبر ، وأخبر أنه زويت له الارض فأرى مشارقها

ومغاربها وسيبلغ ملك أمته مازوى له منها ، وكذلك كان : فامتد ملك أمته فى المشارق والمغارب مابين أرض الهند فى المشرق الى بحر طنجة فى المغرب ولم يمتد فى الجنوب والشمال مثل ذلك الامتداد ، وأخبر بالموتان الذى كان بعد فتح بيت المقدس فكان بعد ذلك الفتح طاعون عمواس ، وأخبر بما ينال أهل بيته رضى الله تعالى عنهم من التقتيل والتشريد وبقتل سيدنا الحسين رضى الله تعالى عنه فى « الطف » فكان ذلك وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وأخبر عن الحسن رضى الله تعالى عنه بأنه يصلح الله به بين فئتين فكان الصلح بسببه بين الفئة التى معه والفئة التى مع معاوية ، وقال لسراقة أحد أصحابه : كيف بك اذا لبست سوارى كسرى ؟ فلما أتى بهما لعمر عند فتح بلاد فارس ألبسهما لسراقة وقال : الحمد لله الذى سلبهما كسرى وألبسهما سراقة ، كما نقله السيوطى في « الجامع الصغير » ونقله فى « جمع الجوامع » عن البخارى فى « التاريخ » والحاكم فى « المستدرك » ونقل بعضهم عن الامام أحمد فى مسند حسن[1] وصححه عن بشر الغنوى : لتفتحن القسطنطينية ولنعم الامير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش ، وقد حقق الله تعالى فتح القسطنطينية على يد ساكن الجنان السلطان « محمد الغازى » المشتهر بأبى الفتح ، فى عام ثمانمائة وسبع وخمسين من هجرة سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ،

(١) كذا بالأصول التى بأيدينا وهو كما ترى

وأصبحت عاصمة دار الاسلام ، ومقر خليفة سيد الانبياء العظام ، وموئل الخاص والعام ، وما أحسن تلك الشهادة من حضرة فخر الكائنات عليه أفضل الصلوات والتحيات فى حق فاتح القسطنطينية ، حضرة مولانا السلطان « محمد الغازى » بل الله ثراه برضوانه ، وأسكنه فراديس جنانه ، وفى حق جيشه المؤيد المنصور ؟؟ وما أكرمها من منحة تنشرح بها الصدور ؟ كيف : وهى من أعظم المناقب الحسان ، لسادتنا سلاطين آل عثمان ، مع ما لهم من المفاخر التى لا تعد ، والمآثر التى لا يحيط بها حـد ، بما فتح الله تعالى على أيديهم من الممالك العظيمة ، والاقاليم الجسيمة ، وجمعهم كلمة أهل الاسلام بعد التفرق ، وانقسام ممالك الاسلام الى أقسام عديدة ، وحكومات متباينة كل ذلك مع محافظتهم على الشريعة المحمدية المطهرة ، وتأييد الملة الحنيفية المنورة ، ونصرتهم مذهب أهل السنة والجماعة ، وحمايتهم الممالك الاسلامية وثغورها ، وتعظيمهم لحملة الشريعة المحمدية من علماء الدين ، وتعظيمهم ومودتهم لآل بيت سيد المرسلين وأشرف النبيين ، إكراما لجدهم الأعظم ، واستمدادا لروحانيته صلى الله تعالى عليه وسلم ، وخدمتهم للحرمين المحترمين ، والمسجد الاقصى ، وتشييدهم من الجوامع ، والمساجد ، وبيوت الأذكار ، وجليل الآثار مالا يحصى ، وتعهدهم بالعطايا صنوف المحتاجين ، وتطييب قلوب افراد التبعة العثمانيين ، وبذل ثابت الهمم فى تأييد هـذا الدين ، وإقامة

شعائر الموحدين ، ونشر العلوم والمعارف فى سائر الاقطار ، وكافة النواحى والأمصار ، الى غير ذلك من المناقب الجليلة . والمآثر الجزيلة التى ملأت الكتب والدفاتر ، وقصرت عن احصائها الاقلام والمحابر ، فالله المسؤل : أن يؤيدشوكة مجدد مفاخرهم،ومؤيدمآثرهم ، حضرة سلطاننا الاعظم ، وخليفة نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم على ممر الدهور والأزمان ، ملحوظا بعين عناية سيد الأكوان صلى الله تعالى عليه وسلم ، آمين ، آمين

وليعلم : أن هـذه الاحاديث الواردة فى أخباره عليه الصـلاة والسلام بالأمور المستقبلة قد دون كثيرمنها فى تآليف العلماءالأئمة الأعلام قبل أن تحدث وقائعها فى الكون ، ثم بعـد ذلك صارت تحدث واحدة بعد واحـدة ، وتلك التآليف : معلومة مشهورة ، معلوم تاريخ جمعها وكتابتها ، هذا : حديث فتح القسطنطينية رواه الامام أحمد الذى كان قبل فتحها بمئات ، وكذلك نقله السيوطى فى«جمع الجوامع» عن البخارى فى «التاريخ » والحاكم فى «المستدرك » وكل من البخارى والحاكم كان قبل فتحها بمئات ، ومعاذ الله أن ينقل تلك الاخبار فى كتبهم أتباع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنصار شريعته وتكون غير ثابتة الرواية عندهم ، فلولا اعتمادهم روايتها عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لما حرروها فى كتبهم باقية على مدى الدهور وهم يعلمون وفور أعداء الدين المبين ، ومن المعلوم أن

سيدنا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم : كان من العقل فى أعلى الطبقات كما يشهد له بذلك أعداؤه ، وكيف يقدم عاقل ادعى منصب الرسالة من عند الله ، واتبعه عليه الألوف على الاخبار بتلك الامور المهمة : كفتح القدس ، والشام ، والقسطنطينية، وأمثالها وهو يعتقد أن ذلك لا يكون ، ويعرض نفسه للتكذيب والطعن فى مستقبل الزمان ؟ معاذ الله أن يقدم عاقل على ذلك فليتأمل المنصف

ثم ليعلم بعد ذلك كله أن الاخبار بالغيب ليس فى طوق البشر من رسل أو سواهم، ومن ادعى علم الغيب من نفسه فقد قال العلماء: إنه يكفر ، وانما الذى يحصل للبشر من ذلك انما هو باعلام الله تعالى لهم ، وهو سبحانه : عليم بما كان وبما يكون ، فلا اشكال فى ذلك ، فنحن معشر المسلمين نؤمن بوقوع الاخبار المغيبات من الرسل باعلام الله تعالى لهم عليهم الصلاة والسلام

واذا أردنا أن نستوفى معجزات سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم التى أيده الله تعالى بها احتجنا الى كتابة مجلدات ، ولكن قد ذكرنا منها ما يكون فيه للعقول مقنع ، وفى الحقيقة ونفس الأمر اذا نظر العاقل اللبيب فى نفس شريعته عليه السلام ، وما اشتملت عليه من الحكم والاسرار ، والمنافع الدنيوية والأخروية، ونظر فى ذاته الشريفة، وما خصه الله تعالى به من الشمائل والاخلاق المنيفة ، مع أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قد ربى يتيما ، ونشأ أميا لا يقرأ ولا يكتب ، بين قوم

أميين ما عندهم من المعارف والفنون عين ولا أثر إلا مافطرهم الله تعالى عليه : من الفصاحة والبلاغة ، ولم يجتمع مع أهل المعارف اجتماعا يؤهله لاكتساب شيء مما جاء به وبلغه للخلق ، وماجاء به بحر عجاج يستغرق الاحاطة بعشره العمر المديد ، جزم ذلك العاقل اللبيب أن حاله عليه السلام ، وحال شريعته هو أمر خارق للعادة ، يحكم العقل بأنه معجزة أكرمه الله تعالى بها مؤيدة لدعواه ، ولـكن هذه المعجزة لايدركها ولا يفهم كنهها إلا أهل الدقة فى النظر ، وأذكياء الخلق من البشر ، لأن من سواهم لايفهم إلا المعجزات المحسوسة بحاسة السمع والبصر : مثل كلام الحجر ، والشجر ، وانشقاق القمر ، والله تعالى قد أيد نبيه عليه السلام بكلا النوعين من المعجزات كما يظهر مما قدمناه فى بيان معجزة القرآن الشريف وسواها من المعجزات المنقولة فى الحديث المنيف ، ولنذكر الآن طرفا من بيان حال شريعته عليه الصلاة والسلام ، وحالته الشريفة العظيمة الشأن ، عسى أن ينتفع بذلك بعض أهل هذا الزمان ، فنقول : —

اذا نظر العاقل المنصف فى شريعة حضرة سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم نظر من يريد الاطلاع على الحقائق ، وأحاط بأسرارها على قدر الطاقة سالـكا أوضح الطرائق ، ظهر له ظهور الشمس فى رابعة النهار : أن الشريعة المحمدية تأمر بكل خير ، وتنهى عن كل شر وضير ، هى : أنفع ما يكون للأنام ، على مدى الليالى والايام ،

فيراها تأمر الخلق بالاعتقاد بالعقائد الصحيحة في حق الله تعالى ، بوصفه سبحانه بكل كمال يليق بشأن الالوهية ، وتنزيهه عن كل نقص تتعالى عنه صفة الربوبية ، وكذلك في حق الرسل الكرام الذين جعلهم الله تعالى هداة الانام : من نحو اعتقاد عصمتهم من المعاصى ، وتنزيههم عن كل نقص يخل بمنصب الرسالة ، وتأمر بعبادات هى فى الحقيقة عائدة بالنفع على العباد ، فتأمر بالطهارة ، وهى مع ما اشتملت عليه من منافع النظافة والنشاط للأبدان ، تذكار للانسان بالتوبة التى هى طهارة المرء من الذنوب والآثام ، وتأمر بعبادة الصلاة ، وهى من أعظم المهذبات للنفس ، بما اشتملت عليه من الخضوع والخشوع ، والركوع والسجود : تعظيما لله تعالى ، وفيها التوسل اليه سبحانه وتعالى والضراعة لديه ، وسؤاله الرحمة والمغفرة والاعانة والاستعاذة من العقاب ، فلذلك كانت وصلة بين العبد وربه ، وتذكاراً له بمن هو الرقيب عليه ؟ فلو أن الانسان استغرق فى الغفلة عن مولاه ، بانهما كه فى أشغال دنياه ، لطغت نفسه ، وأنساه الشيطان ذكر خالقه ، وهوّن عليه سلوك سبيل المعاصى والشهوات ، ولكنه بوقوفه فى اليوم والليلة خمس مرات بين يدى مولاه ، مستحضراً عظمته وجلاله يلتجىء الى التوبة مما جناه ، وتفتر همته عما من المعاصى نواه . وفى ذلك يظهر مصداق قوله تعالى : « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وفى اجتماعات الصلوات : من صلاة الجماعة . والجمعة . والعيدين

تسهيل سبيل التعارف والتآلف بين المسلمين ، والتعاضد على نصرة الدين ، وألفة الاطاعة لأمير المؤمنين ، وحكم كثيرة يقصر عنها قلم الكاتبين ، وتأمر بالصوم وفيه : تهذيب النفس بمنعها عن شهواتها ، وتمرين الانسان على ردع نفسه عن المعاصى والشهوات المضرة ، وتذكار المرء بأحوال الفقراء والمساكين وما يجدونه من ألم الجوع ولولا الصيام لكان ربما يمر على الغنى عمره ولا يعلم ما هو ألم الجوع فلا يجد للشفقة على الفقراء فى قلبه أثراً ، وتأمر بالزكاة وفيها الاحسان للفقراء والضعفاء بسد حاجاتهم ، وتهذيب نفس الغنى ، وتطهيرها عن خلق البخل المذكور ، وتأمر بعبادة الحج وهو زيارة أمكنة مخصوصة وعد الله الأمة على لسان رسوله عليه السلام بغفران الذنوب وقبول التوبة عندها ، وفى ذلك اجتماع المسلمين ألوفا مؤلفة فى تلك الاماكن وذلك يدعو الى التعارف والتآلف ، وفيه تذكار ما جرى لرسل الله الكرام وعباده الصالحين فى تلك البقاع المشرفة : كتذكار ما جرى لسيدنا آدم عليه السلام ولزوجته هنالك من قبول الانابة للمولى . وماجرى لسيدنا ابراهيم الخليل ولولده اسماعيل عليهما السلام من الامتحان واطاعتهما للرحمن ، وبتذكار أعمال أولئك الاخيار ، وبمحاكاتها فى تلك الديار : تنبعث الانفس لتذكار بقية أعمالهم وعباداتهم واطاعتهم لمولاهم . وتشتاق للاقتداء بهم والتخلق باخلاقهم فى كل مرضى لخلاقهم ، وفيه زيارة البيت المعظم الذى سماه الله تعالى بيته ،

وهو سبحانه غني عن المكان ، وانما ذلك منه تعالى تنزل لافكار البشر الذين اعتادوا على الالتجاء لبيوت ملوكهم عند ماتدهمهم المصائب فالحجاج يلتجئون الى ذلك البيت مستجيرين من مصائب الذنوب وغوائل المعاصي ، طالبين منه تعالى الاجارة من بلايا الآثام ، راجين منه الغفران كما وعدهم على لسان سيد الاكوان ، وبذلك تطمئن نفوسهم بنوال المغفرة عند امتثال ما أمروا به من الاعمال عند تلك الامكنة الطاهرة ، الى غير ذلك من الحكم والاسرار التي يضيق عنها هذا الكتاب المختصر : فليرجع بذلك الى كتب الشريعة الغراء المتكفلة بمزيد البيان ، وتأمر تلك الشريعة بكل عمل حسن وتنهى عن كل فعل قبيح مضر بالجسد ، أو العقل ، أو العرض ، أو المال ، وتأمر بالاخلاق المحمودة : كالحلم ، والصبر ، والرضا ، والرحمة والشفقة وتنهى عن كل خلق ذميم : كالكبر ، والحسد ، والبغضاء ، والحقد ، حتى انها ما تركت أمراً حسنا إلا أمرت به وحضت عليه ، ولا أمراً قبيحا إلا حذرت منه ونهت عنه ، وقد جعلت لبعض المنهيات الظاهرة الضرر عقوبات وحدودا لاجل الزجر عنها : كمثل قتل النفس ظلما الذي قبحه لايحتاج الى بيان ، ومثل الزنا الذي يقتضي اختلاط الانساب وفقد التناصر ، وكشرب الخمر الذي يزيل العقل ، ويؤهل الانسان لارتكاب كل قبيح ، وكل ذلك ينطوي تحته حكم بديعة ، وأسرار رفيعة ، تعلم من الاطلاع على كتب هذه الشريعة . وكذلك لم تدع

بابا من أبواب المعاملات والسياسات البشرية إلا وضعت له قوا.
وشرعت له أصولا ينتظم بها أمر المعاش بين البشر ويستوفى بها كل
من القوى والضعيف حقه : فبينت أصول البيوع ، والشركات ،
والانكحة والمواريث ، والمعاهدات ، وكيفية الاطاعة لولاة الأمور ،
وكل ما يقوم به صلاح الامة من كلى وجزئى يعلم ذلك من الاطلاع
على كتب الفقه أصولا وفروعا ، فاتيان رسول الله صلى الله عليه
وسلم بهذه الشريعة التى عجز عن الاتيان بها أكبر العلماء ، وأحذق
الاذكياء ، وأكبر السياسيين الممارسين سياسة الأمم ، مع أنه عليه
الصلاة والسلام كان أميا لايقرأ ولا يكتب ، ولم يتفق له تعلم من
أحد البشر فى مدة حياته هو معجزة خارقة للعادة ، ودليل على أن تلك
الشريعة من عند الله تعالى ، أرسله بها سبحانه لارشاد الخلق الى الحق

أما كونه عليه السلام أميا لايقرأ ولايكتب فهو أمر مشهور
متواتر بالتواتر الصحيح الذى جاءت به المئات والالوف من العدول
الثقاة ، وقد صرح به فى القرآن الشريف فى عدة آيات ، والقرآن
يتلى على رؤس الاشهاد من زمنه عليه السلام الى يومنا هذا ، ولم ينكر
كونه أميا أحد من قومه ، ولا أحد وجد بعد زمانه قال الله تعالى
فى القرآن الكريم : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه
بيمينك اذا لارتاب المبطلون »

وأما انه عليه السلام لم يتفق له التعلم من أحد من الناس ، فلأنه

نشأ بين قومه فى مكة مشهورا ، معروفا بينهم ، لانه من ذوى البيوت وأصحاب الحسب ، ومثله لايجهل فى بلدته ، وقومه أميون لم يوجد بينهم من يعرف القراءة والكتابة الا القليل ، وأما من يكون محيطا بعدة معارف ، ومطلعا على سياسات البشر ، وقوانين الأمم بحيث يؤهله ذلك لترتيب مثل هذه الشريعة التى جاء بها الرسول عليه السلام ، فلم يكن موجودا بينهم لامنهم ولا من سواهم ، اذ مثل هذا لايخفى وجوده فى بلدة مثل مكة ، وكان يغدو مشهورا بين الخاص والعام ، ولو قصد أن يخفى نفسه لعسر عليه ذلك ، وأيضا ان تعلم الرسول عليه السلام تلك الشريعة من مثل هذا الانسان المفروض لايكون فى مجلس أو مجلسين بل يحتاج الى أعوام ، وأن يتردد عليه فى كثير من الليالى والايام ، فليس من الممكن عادة أن يخفى تعلمه منه على جميع أهل بلده مهما تحرى ذلك واجتهد فيه ، وقد كان بعض المشركين تمسكوا بمثل هذه الشبهة ، وصاروا يقولون : إن محمدا يتعلم القرآن من فلان ، وذكروا رجلا أعجميا كان بينهم ، فافتضحوا بهذه الدعوى الواضحة البطلان ، حيث نسبوا تعلم القرآن الذى هو فى أعلى طبقات الفصاحة والبلاغة العربيتين الى رجل أعجمى : ليس عنده أدنى فصاحة ، ولاأقل بلاغة توجد فى اللسان العربى ، وقد رد الله تعالى عليهم هذه الشبهة فى كتابه المجيد فقال سبحانه : « لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين »

وان قيل : رعا ان محمدا عليه السلام تعلم تلك الشريعة من أحد الناس خارج مكة فى بعض البلاد الشامية التى روى انه سافر اليها قبل دعوى الرسالة مع جملة من التجار ، قلنا : ان الذي ثبت نقله وصحت روايته أنه عليه السلام ماغاب عن مكة فى البلاد الشامية الاعدة أيام تبلغ الشهرين أو الثلاثة هى مدة الذهاب والرجوع وقضاء مصالح التجار الذين سافر معهم، وتلك المعارف التي ظهرت فى شريعته يحتاج تعلمها الى شهور وأعوام وليال كثيرة وأيام، ولو كان المعلم من أبرع المعلمين والمتعلم من أذكى المتعلمين : فأى عاقل يصدق أنه عليه السلام تعلم جميع تلك المعارف فى تلك الايام القلائل التي غاب فيها عن بلده ــ مكة ، وهو رجل أمى لايقرأ ولايكتب ، وتلك المدة لاتكفى لتعلم باب واحد من أبواب تلك الشريعة ولو كان المتعلم كاتبا قارئا؟ على أن الرسول عليه السلام ماجاء بتلك الشريعة وأظهرها للناس دفعة واحدة من أول دعواه الرسالة بل : كان يأتى بذلك مفرقا موزعا على الأزمنة من أول دعواه الى أن تم دينه ، وانتشر بين الأمم الذين اتبعوه فى مدة اثنتين وعشرين سنة : فكان يبلغ أحكام شريعته وجميع مشتملاتها للناس شيأ بعد شيء ، على حسب المقتضيات ، والمصالح ، والحوادث ، والمشاكل ، والسؤالات ، والشبه الواردة من أخصامه : فيأتى فى مقابلة كل شيء بما يطابقه وفق المرغوب ، وهذه الكيفية معلومة لنا بالضرورة ، بما نقل من سيرته ، وكيفية تمام أمره ، نقلا

صحيحا متواترا ، وحينئذ يقال : ماالذى أعلم ذلك المعلم الذى يدعى الخصم أنه علم الرسول عليه السلام بجميع الحوادث المستقبلة التى سوف تقع وتتفق له بينه وبين أخصامه أو أتباعه ؟ سواء قيل : إن ذلك المعلم من نفس مكة أو من خارجها ، فعلمه قبل دعواه الرسالة جميع مايناسب الحوادث التي سوف تحدث معه فى دعواه ، فعرف جواب كل سؤال سوف يرد عليه ، ودفع كل شبهة ، وحكم كل حادثه ، وحل كل مشكلة : وصار عليه السلام يورد لكل شىء مايناسبه ، ويجيب له فى وقته ، مسددا مقنعا للافكار ، وإنا نرى من تلك الحوادث مالا يخطر فى بال أحد أنه سوف يقع أو يتفق وقوعه الى آخر الزمان : ومن يطلع على ماحدث من الحوادث فى مدة دعواه الرسالة يعلم أن احاطة أحد بجميع ماسوف يحدث فى تلك المدة واستحضار مايلزم له هو من المحال عادة ولايقول به الامكابر ، وقد كان عليه السلام فى أكثر أحواله يرد عليه السؤال أو الشبهة ويجيب عن ذلك فى مجلسه فى الملأ العام بين جماهير أصحابه ، وأعدائه المشركين ، ولم يشاهد أحد حينئذ أنه يلتفت الى واحد من الحاضرين ويسأله متعلما منه ما يلزم له من الجواب ، أو يضطر اليه من الخطاب بل : هو المجيب ، والمدافع ، والمفيد ، والمعلم ، وكل من لديه تلامذة متعلمون ، فأين هذا المعلم للرسول الذى يزعمه الخصم ؟ ماهذا الزعم الا افتراء بارد : فقد ظهر الحق لذوى الانصاف ، وتبين ان اتيان سيدنا محمد الأمى بهذه

الشريعة الغراء معجزة من معجزاته ، وأن دعوى تعلمه من أحدمن البشر هي دعوى باطلة لايقول بها الا كل جاهل بأحوال سيرته ، وتاريخ حياته ، أو معاند مكابر للحق : هدانا الله تعالى الى ما فيه النجاة ، آمين

وأما حاله عليه الصلاة والسلام فى ذاته الشريفة ، وأخلاقه ، وشمائله المنيفة ، فقد نقل لنا العدول وصح لنا الاخبار البالغة بكثرتها درجة التواتر : أن سيدنا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم قد وهبه الله تعالى المحاسن خلقا وخلقا ، وجمع الله تعالى فيه الفضائل الدينية والدنيوية : أما حسن صورته وخلقته فقد ثبت النقل الصحيح أنه عليه السلام : كان أحسن الناس صورة ، وأجملهم خلقة ، فكان على ما يرام من المحاسن والجمال الباهر ، كما قال فيه بعض واصفيه :

وأحسن منك لم تر قط عيني ... وأجمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرأ من كل عيب ... كأنك قد خلقت كما تشاء

وقد أفردت محاسن ذاته الشريفة بالتأليف. فليتشرف بالاطلاع عليها من أراد ، وأجمع ما وصفه به الواصفون قول بعض من شاهده عليه السلام : هو أجمل الناس من بعيد ، وأحلاه وأحسنه من قريب يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته .لم أر قبله ولا بعده مثله، وتخصيص الله تعالى له بحسن الصورة هو من جملة الحكم الالهية ، فان الله تعالى

بعثه داعيا للخلق وحسن الصورة مما تألفه الانفس ، وتلذ به الأعين ، فتقبل عليه كما أن قبح الصورة منفر مشرد

وأما وفور عقله عليه السلام وذكاء لبه . فقد صحت الأخبار ، وتواردت النقول . أنه كان عليه السلام أعقل الناس وأذكاهم ، ومن نظر الى تدبيره أمور بواطن الخلق وظواهرهم ، وسياسة الخاصة والعامة ، وتأليفه أجلاف البوادى ، وأخشان الجبال ، وتهذيبه لهم حتى أصبحوا من أكمل الناس أدبا ، ومعرفة ، وسيرة ، فضلا عما أفاضه من العلم ، وقرره من الشرع ، دون تعلم سابق ، ولا ممارسة تقدمت ، لم يشك في رجحان عقله ، وثقوب فهمه عليه السلام لأول بديهة . وهذا لايحتاج الى تقرير الدليل ؛ لتحققه بالمشاهدة فى عصره ، وتواتره بعد ذلك بين طوائف العالم ، وقد أعطى عليه السلام جوامع الكلم ، وخصص ببدائع الحكم ، وأفرد الناس جوامع كلمه ، وبدائع حكمه بالتاليف : فمن ذلك قوله عليه السلام : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » وقوله : « لاخير فى صحبة من لايرى لك ماترى له » وقوله : « ماهلك امرؤ عرف نفسه » وقوله : « المستشار مؤتمن وهو بالخيار حتى يتكلم » وقوله : « رحم الله عبدا قال خيرا فغنم ، أوسكت فسلم » وقوله : « ان أحبكم الى ، وأقربكم منى مجالس يوم القيامة : أحاسنكم أخلاقا ، الموطؤن أكنافا الذين يألفون ويؤلفون » وقوله : « ذو الوجهين لايكون عند

الله وجيها » وقوله: « اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » وقوله : « خير الامور أوساطها » وقوله : « أحبب حبيبك هونا ما ، عسى أن يكون بغيضك يوما ما » وقوله: « السعيد من وعظ بغيره » الى غير ذلك من جواهر الكلام وجوامعه، وبديع الحكم التى يقصر عن استيفائها القلم

وأما حلمه عليه السلام وعفوه وصبره فقد كان فى الدرجة العليا من هذه الاخلاق ، فقد صح أنه صلى الله تعالى عليه وسلم ما انتقم لنفسه الا أن تنتهك حرمة الله تعالى فينتقم لله بها ، ولما آذاه المشركون أشد الاذى قيل له : لودعوت عليهم ،فقال : إنى لم أبعث لعانا، ولكنى بعثت داعيا ورحمة : اللهم اهد قومى فانهم لايعلمون : نعم أخذ يدعو على القبائل التي غدرت بجملة من قراء الصحابة وقتلهم ظلما ، غيرة منه عليه السلام على حرمة الله التى انتهكت فى قتل أولئك المؤمنين المظلومين ، ولما أنزل الله تعالى عليه « ليس لك من الامر شىء » كف عن الدعاء عليهم ، وفوض الأمر اليه تعالى ، وكم هم أناس بقتله غدرا وقبض عليهم فعفا عنهم ؟ وكم جافاه أجلاف العرب فلاطفهم ، فهو كما نقل وصفه فى الكتب القديمة : انه لا تزيده شدة الجهل عليه الا حلما ، وكم صبر على مقاساة قريش وصابر الشدائد الصعبة معهم إلى أن أظفره الله تعالى عليهم ، وحكمه فيهم وهم لايشكون في إهلاكه لهم عن آخرهم ، فازاد على أن عفا وصفح عنهم ، وقال « أقول كما قال أخى يوسف : « لاتثريب عليكم اليوم إذهبوا فأنتم الطلقاء »

والآثار فى ذلك كثيرة وكلها تدل على أنه عليه الصلاة والسلام كان أبعد الناس غضبا ، وأسرعهم رضا

وأما جوده وسخاؤه وسماحته عليه السلام فقد كان بحراً ذاخراً فى هذه الاخلاق الكريمة فما روى أن رجلا سأله فأعطاه غنما بين جبلين فرجع إلى قومه وقال : أسلموا فان محمدا يعطى عطاء من لا يخشى فاقة ، وأعطى غير واحد مائة من الابل ، ورد على هوازن سباياهم وكانوا ستة آلاف ، وقُوِّم ما وهبه لهوازن فكان خمسمائة ألف ألف ، والروايات فى ذلك أكثر من أن تحصى

وأما شجاعته ونجدته عليه الصلاة والسلام فقد كان منهما بالمكان الذى لا يجهل : قد حضر المواقف الصعبة وفر الكماة والابطال عنه غير مرة وهو ثابت لا يبرح ، ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح ، قال على رضى الله تعالى عنه : كنا اذا حمى البأس ، واحمرت الحدق : اتقينا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب الى العدو منه

وأما حياؤه واغضاؤه فقد كان عليه الصلاة والسلام : أشد الناس حياء ، وأكثرهم عن العورات إغضاء ، فكان لا يشافه أحدا بما يكره حياء وكرم نفس ، حتى كان اذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل : ما بال فلان يقول كذا ولكن يقول : ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا : ينهى عنه ولا يسمى فاعله ، ولم يكن عليه الصلاة والسلام فاحشا ، ولا متفحشا ، ولا صخابا في الاسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة

وأما حسن عشرته وآدابه وبسط خلقه مع أصناف الخلق فهو أمر مشهور : فورد أنه كان أوسع الناس صدرا ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، وكان يؤلف المسلمين ولا ينفرهم ، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ، يتفقد أصحابه ، ويعطى كل جليس نصيبه ، ولا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه : من جالسه أو قاربه صبر على سؤاله ، وذكر حوائجه حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يرده الا بها أو بميسور من القول ، قد وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أبا ، وصاروا عنده فى الحق سواء ، كان دائم البشر ، سهل الخلق ، ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخاب ، ولا عياب ، ولا فحاش ، ولا مداح : وكان يجيب من دعاه ، ويقبل الهدية ــ ولو كانت كراعا ويكافىء عليها ، قال أنس رضى الله تعالى عنه : « خدمت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عشر سنين فما قال أف قط ، وما قال لشىء صنعته لم صنعته ، ولا لشىء تركته لم تركته » ، ولا دعاه أحد من أصحابه أو من أهل بيته إلا قال : لبيك ، وكان يمازح أصحابه ولا يقول فى مزاحه إلا حقا ، ويخالطهم ، ويحادثهم ، ويداعب صبيانهم ويجلسهم فى حجره ، ويجيب دعوة العبد والحر والأمة والمسكين فى أقصى المدينة ، ويقبل عذر المعتذر : وما أخذ أحد بيده فيرسله بيده حتى يرسلها الآخذ ، ولم ير مقدما ركبتيه بين يدى جليس له ،

ويبتدئ من لقيه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة ، ويكرم من يدخل عليه وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة ، ويعزم عليه بالجلوس عليها ان أبى، ويدعو أصحابه بأحب أسمائهم اليهم، وكان لا يجلس اليه أحد وهو يصلى الا خفف صلاته وسأله عن حاجته واذا فرغ عاد الى صلاته ، وروى عن أنس رضى الله تعالى عنه أنه قال «كان خدمة المدينة يأتون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذا صلى الغداة » أى الصبح « فما يؤتى بآنية إلا غمس يده فيها ، وربما كان ذلك فى الغداة الباردة يريدون التبرك به »

وأما شفقته ورحمته على أمته فذلك أمر مشهور ، وشواهده لا تحصى : وقد كان يسمع بكاء الصبى فيتجوز فى صلاته رحمة بأمه ، ويكفى بالدلالة على ذلك أنه : ما خير بين أمرين الا اختار أيسرها ، فجزاه الله تعالى عنا كل خير

وأما خلقه بالوفاء ، وحسن العهد ، وصلة الرحم ، فهو شهير موفور ، وقد روى أنه وفد عليه وفد النجاشى ملك الحبشة الذى كان قد هاجر الى بلاده جملة من الصحابة فأكرم مثواهم : فقام صلى الله تعالى عليه وسلم يخدم أولئك الوفد بنفسه فقال أصحابه : نكفيك فقال : إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين ، وانى أحب أن أكافئهم ، وأقبل أبوه من الرضاعة فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه ، ثم أقبلت أمه فوضع لها شق ثوبه من جانبه فجلست عليه ، ثم أقبل أخوه من

الرضاعة فقام فأجلسه بين يديه ، وقد ورد فى صفته صلى الله عليه وسلم أنه : يصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويقرى الضيف ، ويكسب المعدوم ، ويعين على نوائب الحق

وأما تواضعه عليه الصلاة والسلام مع علو منصبه ورفعة رتبته فكان أعظم الناس تواضعا ، وأعدمهم كبرا ، كان يقول : « انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد» ، وكان يركب الحمار ويردف خلفه ، ويعود المساكين ، ويجالس الفقراء ، ويجيب دعوة العبد ، ويجلس مع أصحابه مختلطا بهم ، حيثما انتهى به المجلس جلس ، وكان يدعى الى خبز الشعير فيجيب ، ويأكل مع الخادم ، وحج على رحل رث وعليه كساء من صوف لايساوى أربعة دراهم ، وقد أهدى فى ذلك الحج مائة بدنة ، وكان فى بيته فى مهنة أهله : يحلب شاته ، ويرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويكنس البيت ، ويعلف البعير ، ويخدم نفسه ، ويحمل ما يشترى من السوق مع كثرة عبيده وخدمه وتشوق الناس لخدمته ، لكنه يحب فعل ذلك تواضعا وتشريعا

وأما عدله وعفته وصدق لهجته صلى الله تعالى عليه وسلم فقد كان أعدل الناس ، وأعفهم ، وأصدقهم لهجة منذ كان : اعترف له بذلك أعداؤه ، وكان يتحاكم اليه في الجاهلية قبل الاسلام ، وورد أنه : مالمست يده يد امرأة قط لايملك رقها ، وما خير فى أمرين الا اختار أيسرهما مالم يكن اثما ، فان كان اثما كان أبعد الناس ، وقد جزء نهاره ثلاثة أجزاء ،

جزءا لعبادة ربه ، وجزءا لمصالح أهله ، وجزءا لنفسه ، ثم جزء جزءه بينه وبين الناس ، وكان يقول : أبلغوا حاجة من لايستطيع إبلاغي ؛ فانه من أبلغ حاجة من لايستطيع أمنه الله يوم الفزع الأكبر ، وقد كان معروفا بالصدق بين قومه من أول نشأته حتي دعوه بمحمد الأمين ، وقال بعض المشركين بعد بعثته : إنا لانكذبك ولكن نكذب ماجئت به فأنزل الله تعالى فى القرآن المجيد قوله تعالى : «فانهم لايكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون »

وأما وقاره وصمته وحسن هديه صلى الله تعالى عليه وسلم : فقد كان أوقر الناس فى مجلسه ، لايكاد يخرج شئ من أطرافه ، وكان كثير السكوت لايتكلم من غير حاجة ، وكان ضحكه تبسما ، وكلامه فصلا : لافضول فيه ، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم توقيراً له واقتداء به ، مجلسه مجلس حلم وحياء وخير وأمانة ، اذا تكلم أطرق جلساؤه كأن على رؤسهم الطير ، وكان أحسن الهدى هديه ، وكان سكوته على أربع ، على الحلم والحذر والتقدير والتفكر

وأما زهده فى الدنيا فحسبنا منه تقلله منها ، واعراضه عن زهرتها وقد سيقت اليه بجملتها ، وترادفت عليه فتوحاتها بما يسر الله له : من الغنائم ، والأموال ، والأرزاق الواسعة الطيبة بحيث لوأراد لتوسع فيها واقتطف زهرتها فلم يرضها واكتفى بأقل قليل منها وحسبنا ما ورد أنه : ما شبع من خبز شعير يومين متواليين ، وما

ترك دينارا ولا شاة ولا بعيرا، ولم يترك إلا سلاحه وبغلته وأرضا جعلها صدقة ؟ وقد كان فراشه جلدا مدبوغا وحشوه ليف ، وكان ينام أحيانا على سرير من خوص النخل حتى يؤثر بجنبه الشريف عليه الصلاة والسلام ، وكان ينام جائعا يلتلوى طول ليلته من الجوع فلا يمنعه ذلك عن صيام يومه ، ولو شاء لجمع كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها ، قالت إحدى نسائه : كنت أبكى رحمة له مما أراه ، وأمسح بيدى على بطنه مما به من الجوع ، وأقول : نفسى لك الفداء ، لو تبلغ من الدنيا ما يقوتك ، فيقول : مالى وللدنيا إخوانى : من أولى العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم ، وأجزل ثوابهم فاستحى من الله ان ترفهت فى معيشتى ان يقصر بى غدا دونهم ، ومامن شىء هو أحب إلى من اللحوق باخوانى وأخلائى ، واذا أردنا استيفاء جميع اخلاقه الحميدة ، وعموم صفاته المجيدة احتجنا الى تطويل لا يحتمله هذا الكتاب المراعى فيه الاختصار وبما ذكرناه يظهر للعاقل المنصف المتدبر أن اختصاصه عليه السلام بتلك المحاسن وتحليته بهذه المكارم مع أنه تربى يتيما بين أمة جاهلية تغلب عليهم القسوة والجور ، وخشونة الطباع ، وعدم التهذيب : ما كان ذلك إلا بمحض عناية من الله تعالى به ، وإقامته بمنصب رفيع ، ومقام جليل ، ومن تكون فيه تلك الصفات الكاملة ، والاخلاق الفاضلة ، والعقل الثاقب ، والرأى الصائب ، ما كان ليتلبس بصفة

الكذب والاحتيال ، ويخدع الناس بزخارف المحال ، ويدعى افتراء على الله تعالى أنه رسوله قد اختاره واصطفاه على من سواه ، إنا نرى العاقل منا يمنعه عقله ، ويأبى عليه ضميره ، أن يكذب كذبة واحدة على رجل مثله أو دونه وتأنف نفسه الشريفة أن يقدم على ذلك ولو اضطره الحال : فكيف أن من كان عقله فى أعلى درجات الكمال ، وهو متصف بأشرف الخصال ، يقدم بالكذب على الاله الكبير المتعال ، ويمارس ذلك على ممر الأيام والليالى ؟ معاذ الله أن يقدم على ذلك من له أدنى عقل وأقل كمال

ثم الغريب من أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم — وكل أحواله غريبة — وهو دليل على صدقه ، وأعانة الله تعالى له : انه قلب حال الامة التى قام بينها وهى أمة جاهلية ، مغموسة فى بحار الجهالات والضلالات ، فى العبادات والعادات : فرفعها من حضيض الرذائل إلى أوج الفضائل ، فبدل جورها بالانصاف ، وخشونتها باللين ، وجهلها بالعلم والمعرفة ، وعداوتها بالمحبة والالفة ، ومحاربتها الجورية بالسلام والأمان ، وشقاءها بالنعيم ، وضلالها بالهدى إلى الصراط المستقيم ، وعصيانها بالطاعة ، وفرقتها بالجماعة ، وضعفها بالقوة ، وخيانتها بالاعانة ، وفحشها بالعفة والصيانة ، وقد كان عندها من حميد الشمائل الكرم ولكنه مشوب بالتبذير والاسراف . والشجاعة ولكنها معلولة بالجور والاعتساف ، فعدل عليه الصلاة والسلام خصالها

وهذب اخلاقها حتى اصبحت خير الأمم ، وأكرم العالم ، وسرى ذلك الى الأمم الأخرى التى اعتنقت دينه المبين ، فأصبحوا من خيار الصالحين ، وكل ذلك جرى على يديه عليه الصلاة والسلام بواسطة شريعته التى هى منهج السعادة ، وبحسن سيرته وصفاء أخلاقه وكمال سياسته ، ولا شك أن ذلك منه كان أمرا خارقا للعادة يعد من أعظم المعجزات عندذوى الانصاف ، وقد اشتبه على بعض الاجانب عن الدين المحمدى لما رأوا أن الجهاد مشروع فيه فظنوا أن هذا الدين ما تم أمره الا بالسيف والارهاب ، وهى شبهة باطلة علقت فى فكر من لم يطلع على سيرة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأول نشأته ، وقيام دينه المبين ، وأما من عرف ذلك فلا يجد لهذه الشبهة عينا ولا أثرا ، وبيان ذلك أن الذى ثبت نقله نقلا صحيحا فى سيرته عليه السلام وبدء أمره أنه لما قام فى دعوى الرسالة فى مكة المكرمة كان وحيدا فريدا ، ليس صاحب سلطان ، ولا معتمدا على عصبة عشيرة ، بل انه عند قيامه بتلك الدعوى بين جماهير الأمم : كان أول مكذب له عشيرته وعادوه أشد المعاداة ، وسلطوا عليه أشرارهم بالأذى والاضرار ، وهو التزم طريق الهداية والارشاد : فصار يقيم البراهين على صدق دعواه ، ويورد المواعظ ، ويؤلف القلوب بكل ممكن ، ويأمر بأوامر شريعته المورثة الخير ، وينهى بنواهيها عن كل ما يورث الضير ، ومضى له على ذلك مدة تبلغ عشر سنوات وهو

مقيم فى مكةولم يأمر باراقة قطرة دم لأعدائه ، بل يتلو قرآنه المشتمل على قوله تعالى: « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغى» وقوله فى خطاب من تبعه : « ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » وقوله:« ومن كفر فعليه كفره» إلى غير ذلك من الآيات ، وهاجر من مكة إلى المدينة وهو ملتزم لهذه الطريقة مدة من إقامته فى المدينة ، وقد اتبعه مع تلك الحال والطريقة الجم الغفير من أهل مكة وأهل المدينة ، وطوائف العرب ، كما يعلم من مراجعة سيرته : وقبلت شرعه العقول السليمة ، واستحسنته الطباع الصحيحة ولا خوف هناك ولا ترهيب ، لكن لما ظهر للعقول السليمة ، والانظار القويمة ، أن المخالفون الذين لم يتبعوه عليه السلام لا يعمل معهم البرهان ، ولا تنفع فيهم الموعظة ، ولا يثمر لديهم الارشاد ، بل هم فضلا عن ضلالهم وغشهم لأنفسهم ، بعدم قبول الدين الحق وسلوك سبيل الاستقامة لا يفترون عن أذاه عليه السلام وأذى اتباعه كلما سنحت لهم الفرصة ، ينصبون لهم المكائد ويقيمون فى سبيل دينهم المعاثر ، ويخترعون لهم بدائع الأضرار ، ويعاملونهم معاملة الأشرار ، ووجد أن دوام المعاملة بالرفق لأولئك المخالفين يزيد طغيانهم ، ويشوش أمر الدين على اتباعه أذن الله تعالى له عند ذلك بجهاد الأعداء، والاخصام الالداء، والاغرار البلداء ، استبدالا للترغيب مع هؤلاء الاشرار بالترهيب ، ودفعا للأذى والفساد ، وقطعا

لجرثومة الفساد، اذ قد يسمح بالأشرار لسلامة الأخيار، ويقطع العضو المريض لوقاية صاحبه من البوار، ولكن شرع الله ذلك الجهاد فى شريعة سيدنا محمد عليه السلام على حدود تبقى للرفق مجالا، وللشفقة والعدل منالا، حتى لو قوبل جهاده مع الجهاد المشروع فى الشرائع المتقدمة كشريعة سيدنا موسى عليه السلام لوجد أن فى جهاد شريعة سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم تخفيفات لم توجد فى سواه، يعلم ذلك من الاطلاع على شؤون الشريعتين، وفيما قررناه ظهر أن تلك الشبهة التى يزعم صاحبها أن الدين المحمدى قام بالسيف هى شبهة ظاهرة البطلان، مهدومة الأركان، والحق الحقيق بالقبول أنه ما كان أساس الهدى والسعادة لنا ولأسلافنا إلا بنور شريعة سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، وبهديه وارشاده، فجزاه الله تعالى عنا خير الجزاء، ورفع درجته فى أعلى عليين، فعلينا معشر المسلمين مداومة محبته وتعظيم جنابه الشريف وفداؤه بالأرواح، ومن محبته عليه السلام تعظيم شرعه واطاعة أوامره، واجتناب نواهيه كما قيل:

* ان المحب لمن يحب مطيع *

وأما الشخص الذى يدعى محبته وهو مخالف لشرعه فحاله يكون مكذبا لدعواه، وشاهدا عليه بخبث الطوية، ومن محبته عليه الصلاة والسلام محبة أهل بيته وعترته، وتعظيم حملة شريعته واكرامهم والاحسان اليهم، ومن كمال محبته عليه الصلاة والسلام معرفة نسبه

الشريف من جهة أبيه ومن جهة أمه ، حتى قال بعض العلماء بوجوب ذلك : فأما نسبه من جهة أبيه فهو : سيدنا محمد ، بن عبد الله ، بن عبد المطلب ، بن هاشم ، بن عبد مناف ، بن قصى ، بن حكيم ، بن مرة ، بن كعب ، بن لؤى ، بن غالب ، بن فهر ، بن مالك ، بن النضر ، بن كنانة ، بن خزيمة ، بن مدركة ، بن الياس ، بن مضر ، بن نزار ، بن معد ، بن عدنان ، وليس فيما بعده الى آدم عليه الصلاة والسلام نقل صحيح : وأما نسبه صلى الله عليه وسلم من جهة أمه ، فهو : سيدنا محمد بن آمنة ، بنت وهب ، بن عبد مناف ، بن زهرة ، ابن حكيم ، فتجتمع معه عليه السلام فى جده حكيم

ومن كمال محبته عليه السلام معرفة أسماء أولاده رضى الله تعالى عنهم وهم سبعة على الصحيح: سيدنا القاسم، وسيدتنا زينب ، وسيدتنا رقية، وسيدتنا فاطمة ، وسيدتنا أم كلثوم ، وسيدنا عبد الله ، وهو الملقب بالطيب والطاهر ، وسيدنا إبراهيم ، وكلهم من سيدتنا خديجة الكبرى رضي الله تعالى عنها إلا سيدنا إبراهيم فمن مارية القبطية

ومن حسن الأدب مع حضرته عليه الصلاة والسلام اعتقاد نجاة أبويه ، إما بالاعتماد على قول من يقول : بنجاة أهل الفترة الذين كانوا قبل بعثة الرسول عليه السلام وهما من جملتهم ، وإما بالاعتماد على ماورد فى بعض الآثار أن الله تعالى أحياهما له حتى آمنا به وذلك جائز داخل تحت تصرف قدرة الله تعالى

واعلم أنه قد دلت النصوص الشرعية ، وانعقد اجماع الامة المحمدية ، على أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم مبعوث من الله تعالى الى الناس كافة بل الى الثقلين الانس والجن لا الى العرب خاصة كما زعمه بعض الكفار ، وانعقد اجماع الامة أيضا على أنه خاتم الأنبياء والمرسلين : لا نبي بعده ، فشرعه عليه السلام لا ينسخ الى آخر الزمان ، أى لا يرفع بشرع سواه ، وسيدنا عيسى عليه السلام عند نزوله الى الأرض فى آخر الزمان إنما يحكم بشرع نبينا عليه السلام لا بشرع جديد ، وعدم قبول سيدنا عيسى عليه السلام للجزية هو من جملة شرع نبينا عليه السلام لأن قبول الجزية فى الشرع المحمدى غايته الى نزول عيسى عليه السلام، وقد انعقد الاجماع ايضا على أن شرع نبينا ناسخ لسائر الشرائع المتقدمة، أى ناسخ أكثر أحكامها غير العقائد منها ، وأما العقائد: كالايمان بالله تعالى، وملائكته ، وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، فهى ثابتة فى سائر الشرائع ، وحكمة نسخ شريعة هى اختلاف المصالح بحسب الازمنة ، مثلا المصلحة فى زمن الامم السابقة اقتضت تكليفهم بشرائعهم ، والمصلحة فى زماننا الى آخر الدهر اقتضت تكليفنا بشريعة نبينا ، وبهذا ظهر سقوط شبهة من يقول من الكفار انه يلزم على القول بالنسخ ظهور مصلحة كانت خفية على الله تعالى ، اذ يقال له : ان الله تعالى من الازل عالم بمصلحة كل أمة وزمنها ، فرتب قديما لكل أمة شريعة ؛ وأرسل رسولا لكل منها ، وجعل المتأخرة

ناسخة للمتقدمة فأين الخفاء على الله تعالى؟وانعقد الاجماع ايضا على أن نبينا عليه الصلاة والسلام أفضل الخلق أجمعين لا يفضله أحد من مخلوقات الله تعالى ، ثم الراجح عند العلماء أن الافضل بعد نبينا سيدنا ابراهيم ، ثم سيدنا موسى ، ثم سيدنا عيسى ، ثم سيدنا نوح ، وهؤلا الأربعة مع نبينا هم أولو العزم من الرسل ، ثم بقية الرسل ، ثم الانبياء غير الرسل، وهم متفاضلون فيما بينهم عند الله تعالى ، ثم سيدنا جبريل ، ثم سيدنا ميكائيل من الملائكة ، ثم بقية رؤساء الملائكة، ثم عوام البشر، والمقصود منهم أولياؤهم غير الانبياء : كأبى بكر ، وعمر رضى الله عنهما ، ثم عوام الملائكة ، وقد ثبت فى الأحاديث النبوية أن قرنه عليه الصلاة والسلام أى أصحابه هم خير القرون المتقدمة والمتأخرة ماعدا الانبياء والرسل، والصحابى هو من اجتمع بالرسول عليه الصلاة والسلام مؤمنا به ومات على ذلك، وأفضل أصحابه عليه الصلاة والسلام خلفاؤه الاربعة على ترتيب خلافتهم : فأولهم فى الفضل أبوبكر الصديق ، ثم سيدنا عمر بن الخطاب ، ثم سيدنا عثمان بن عفان ، ثم سيدنا على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهم، وأفضل القرون بعد قرنه عليه الصلاة والسلام قرن التابعين وهم الذين اجتمعوا بالصحابة اجتماعا متعارفا ، ثم قرن أتباع التابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، ومما انعقد عليه اجماع الامة أن النبوة خصيصة من الله تعالى لا تكون مكتسبة للعبد ويفسرونها باختصاص العبد بسماع وحى من الله تعالى بحكم شرعى

تكليفي سواء أمر بتبليغه أم لا ، وكذلك الرسالة لكن بشرط أن يؤمر بالتبليغ ، وأما الولاية فالأظهر عند العلماء فيها التفصيل ، فمنها ما هو مكتسب،وهو امتثال المأمورات واجتناب المنهيات،وتسمى الولاية العامة ، ومنها ما هو غير مكتسب وهوالعطايا الربانية : كالعلم اللدنى ، ورؤية اللوح المحفوظ ، وغير ذلك

ولنختم مبحث المعجزات ببيان بقية خوارق العادات ، فنقول : قد علمت أن الأمر الخارق للعادة إذا ظهر على يد مدعى الرسالةمن عند الله تعالى أو النبوة يسمى معجزة ، فاما إذا ظهر للرسول قبل دعواه النبوة أو الرسالة — كما ورد أن سيدنا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم كانت تظلله الغمامة قبل ارسال الله تعالى له وادعائه الرسالة فيسمى هذا ارهاصا ، أى تأسيسا للرسالة

وأما إذا ظهر الأمر الخارقللعادة على يد ظاهرالصلاح والعدالة وليس عنده دعوى النبوة والرسالة فيسمى كرامة ، ونحن معشر المسلمين من أهل السنة والجماعة نؤمن بكرامات الأولياء ؛ لورود النصوص الشرعية بذلك ، ونقل الاخبار الكثيرة بوقوع خوارق العادات للكثير من الصالحين أكرمهم الله تعالى بها لا لأجل أن يحترموا بين الناس ، أو ليقبل ارشادهم وموعظتهم اذ أقامهم الله تعالى فى مقام الارشاد ، أو لتفريج كروبهم وقضاء مصالحهم اذا احتاجوا الى ذلك ، وكل ذلك فضل من الله سبحانه وتعالى عليهم ، ولا يجب عليه تعالى

شىء من ذلك ، والأولياء جمع ولى ، وهو العارف بالله تعالى وبصفاته حسب الامكان ، المواظب على الطاعة ، المجتنب للمعاصى ، بمعنى أنه اذا ارتكب معصية بادر الى التوبة ، وليس المراد انه لاتقع منه معصية إذ ليس هو معصوما ، المعرض عن الانهماك فى اللذات والشهوات المباحة ، وأما أصل التناول للذات المباحة فلا مانع منه لاسيما اذا كان بقصد التقوى على طاعة الله تعالى

وأما إذا ظهر الأمر الخارق للعادة على يد مستور الحال ، لاظاهر الصلاح ، ولا ظاهر الفسق فيسمى معونة ، أى اعانة من جانب الله تعالى : وأما اذا ظهر على يد ظاهر الفسق فيسمى استدراجا ، بمعنى أن الله استدرجه باظهار ذلك على يده فيتمادى بفسقه ثم اذا أخذه الله تعالى لم يفلته — والعياذ بالله تعالى

وهذه الأقسام من خوارق العادة تكون على وفق مقصد من تظهر على يديه ، وبقى قسم آخر : وهو أن يقع الأمر الخارق للعادة للمرء على خلاف مايطلبه ، كما روى أن مسيلمة الكذاب الذى ادعى الرسالة فى زمن نبينا عليه الصلاة والسلام قد بصق فى عين رجل لتشفى فعميت الأخرى ، ويسمى هــذا القسم من خوارق العادة خذلانا ، أى تكذيبا وخزيا من الله تعالى لذلك الكاذب

ولا اشتباه بين هــذه الأقسام وبين المعجزة ، لأن المعجزة مقرونة بدعوى الرسالة ، أو النبوة — كما تقدم — موافقة لمقصد من

تظهر على يديه ، وغيرها ليس كذلك ، كما أنه لااشتباه بين الكرامة التى تظهر على يد ظاهر الصلاح غير مدعى الرسالة أو النبوة موافقة لمطلبه وبين بقية الأقسام ، والله تعالى أعلم

الفصل الرابع

فى بيان الايمان بالملائكة عليهم الصلاة والسلام ، والايمان بالكتب المنزلة من عند الله تعالى على رسله ، والقضاء والقدر

اعلم أنه يجب على كل مكلف شرعا الايمان بالملائكة عليهم الصلاة والسلام ، وهو أن يعتقد اعتقادا جازما بوجودهم ، وأنهم عباد الله المؤمنون به المكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرن ، وقد وردت النصوص الشرعية بجميع ذلك ، وحقيقتهم عند أكثر المسلمين أنهم أجسام لطيفة ، أعطاهم الله تعالى القدرة على التشكل باشكال مختلفة ، مسكنهم السموات

وقد وردت النصوص الشرعية بما يفيد انهم اقسام ، فمنهم حملة العرش ، ومنهم الحافون حول العرش ، ومنهم اكابر الملائكة : كجبريل وميكائيل ، واسرافيل ، ومنهم ملائكة الجنة ، ومنهم ملائكة النار ، ومنهم الموكلون ببنى آدم ، ومنهم كتبة الأعمال ، ومنهم الموكلون أحوال هذا العالم بالتدبير ، ومنهم رسل الله إلى أنبيائه بالوحى ،

ودلت النصوص أيضا على أنهم قادرون على الأعمال الشاقة العظيمة التي يعجز عنها ألوف البشر بل جميع البشر ، إلى غير ذلك مما ورد فى حقهم فى القرآن والاحاديث

وقد اتفق أئمة المسلمين ـ كما يؤخذ من الشفاء الشريف على عصمة المرسلين منهم بالوحى الى أنبياء البشر كما عصم الانبياء عليهم الصلاة والسلام، ولكن : اختلف العلماء فى عصمة غير المرسلين من الملائكة، وقال الفخر الرازى، والجمهور الاعظم من علماء الدين على عصمة الملائكة عن جميع الذنوب ، وقد تمسك المخالفون فى عصمتهم بأمور ، منها أن ابليس كان من الملائكة فعصى الله تعالى وكفر ، ونحن نقول : إن ابليس كان من الجن ولم يكن من الملائكة ـ كما حققه الامام الرازى وغيره من العلماء ، ومنها قصة هاروت وماروت ، ونحن نقول : أما الآية التي وردت فيهما وهى قوله تعالى « واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه » فالذى تلخص من كلام الامام الرازى فى تفسيره أن السحرة كثرت فى ذلك الزمان ، واستنبطت أبوابا غريبة من السحر وكانوا يدعون النبوة ، ويجعلون تلك الأعمال السحرية معجزاتهم فبعث الله تعالى هذين الملكين لأجل أن يعلما الناس أبواب السحر

حتى يتمكنوا من معارضة أولئك السحرة الذين يدعون النبوة كذبا ولا شك أن هذا من أحسن المقاصد ، فهذان الملكان كانا لا يعلمان احدا السحر حتى يبذلا النصيحة فيقولا له انما نحن فتنة ، أى محنة يتميز بها المطيع من العاصى ، فهذا الذى نصفه لك من السحر وإن كان القصد منه أن يظهر به الفرق بين السحر وبين المعجزة ولكنه يمكنك أن تتوصل به إلى المفاسد والمعاصى : فاياك بعد وقوفك عليه أن تستعمله فيما نهيت عنه ، أو تتوصل به إلى شىء من الاغراض العاجلة ، ثم ان القوم تعلموا منهما السحر واستعملوه فى الشر ، وايقاع الفرقة بين المرء وزوجه ، ثم قال الرازى : واتفق المحققون على أن العلم بالسحر غير قبيح ولا محظور ، يعنى وانما المحظور العمل به ، وتقرير الآية بهذا الوجه لا اشكال فيه ، ولا يدل على معصية الملكين المذكورين كما هو ظاهر ، بل يكونان قد امتثلا أمر الله تعالى فى التعليم ، كما لا اشكال في أنه كيف ينزل الله تعالى عليهم السحر المنهى عنه ، لأن المحرم هو العمل به لا تعلمه لأجل مقصد حسن ، وأما ما روى من أن هذين الملكين قد مثلا بشرين وركب فيهما الشهوة فتعرضا لامرأة يقال لها الزهرة ، فحملتهما على المعاصى والشرك ثم صعدت إلى السماء بما تعلمت منهما فنقول : ان هذه القصة قد اختلف العلماء فى صحة نقلها ، فقال الامام فخر الدين الرازى فى تفسيره

ان هذه الرواية فاسدة مردودة غير مقبولة ، لأنه ليس فى كتاب الله تعالى ما يدل على ذلك بل فيها ما يبطلها من وجوه ، ثم بين تلك الوجوه ، وقال الامام البيضاوى عن هذه الرواية : انها محكية عن اليهود ، وقال أبو السعود فى تفسيره : انها مما لا يعول عليه ، لأن مداره رواية اليهود مع ما فيه من المخالفة لأدلة العقل والنقل ، وقال القاضى عياض فى الشفاء الشريف : ان هذه الأخبار ، يعنى المذكورة فى قصة هاروت وماروت لم يرو منها شىء ، لاسقيم ولا صحيح عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وليس هو شىء يؤخذ بقياس

وإذا علمت ذلك فنحن يسوغ لنا الأخذ بقول هؤلاء الأئمة الاعلام ، والاعتماد على ما رجحوه فى عدم صحة هذه الرواية ، ولا يجب علينا اعتقاد هذه القصة فى هذين الملكين ، وعلى فرض صحة روايتها كما قال به بعضهم فنقول: لعلها من باب ضرب الأمثال والرموز كما ذكر احتمال ذلك البيضاوى ، وأبو السعود ، وبين شيخى زاده والسيلكوتى فى حاشيتهما على البيضاوى كيفية ذلك التمثيل ، أولعل الرواية فى هذه القصة هى حكاية لما قاله اليهود وزعموه من جملة أقاصيصهم ، فبطلانه فى نفسه لا ينافى صحة الرواية التي حكته لنا عنهم ، وعلى هذا حمل السيلكوتى قول البيضاوى: محكية عن اليهود ، وعلى كل فلا تعارض هذه القصة عصمة جميع الملائكة ، والله تعالى أعلم

ومما وردت به النصوص الشرعية ، ويجب الايمان به أن على كل عبد حفظة من الملائكة ، وكاتبين يكتبون أعمال العبد : من حسنات وسيئات ، وهذه الكتابة يكفر منكرها لتكذيبه القرآن قال تعالى : « كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون » لكنها ليست لحاجة دعت إليها ، لاحاطة علم الله تعالى بكل شيء ، وانما فائدتها أن العبد اذا علم بها استحى وترك المعاصي ، والكتب حقيقي : بآلة ، وقرطاس ، ومداد ، يعلمها الله تعالى ، حملا للنصوص على ظواهرها ، مع عدم الاستحالة في ذلك ، والله أعلم

ومما وردت به النصوص الشرعية أيضا وجود ملك يقبض الأرواح ، أي يخرجها من مقرها : فيجب الايمان بذلك ، وورد أن اسمه « عزرائيل » وأن له أعوانا بعدد من يموت : يترفق بالمؤمن ويأتيه بصورة حسنة ، بخلاف غيره ، وسنذكر في الباب الثالث ان شاء الله تعالى الشبه الواردة في شأن الملائكة فانظرها هناك

ويجب على كل مكلف شرعا الايمان بالكتب المنزلة من الله تعالى على الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فنؤمن بأن لله تعالى كتبا أنزلها على رسله ، وبين فيها أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، وأفضل الكتب المنزلة القرآن ، ثم التوراة ، ثم الانجيل ، ثم الزبور ، وكلها كلام الله تعالى

واعلم أن كلام الله يطلق على معنيين ، المعنى الأول هو الصفة

القديمة القائمة بذاته تعالى التي ليست بحرف ولا صوت ، كما قدمناه في بحث صفاته تعالى ، والمعنى الثاني هو الكلام اللفظي المنزل على الرسل ، ومعنى أنه كلام الله تعالى أنه بمجرد الوحي وليس لأحد في أصل تركيبه كسب ، وهو يدل على بعض ما تدل عليه صفة الكلام القديمة ، لأنها تدل على جميع الواجبات ، والجائزات ، والمستحيلات ، كما مر في بحث الصفات ، وهذه الألفاظ المنزلة على الرسل تدل على بعض ما تدل عليه تلك الصفة القديمة فلو كشف عنا الحجاب وفهمنا من الصفة القديمة طلب إقامة الصلاة مثلا لفهم ذلك من قوله تعالى في القرآن : « أقيموا الصلاة » وعلى المعنى الثاني يحمل قول السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها : « ما بين دفتي المصحف كلام الله » ومن أنكر أن ما بين دفتي المصحف كلام الله فقد كفر ، إلا أن يريد أنه ليس الصفة القديمة القائمة بذاته تعالى ، ومع كون اللفظ الذي نقرؤه حادثا ومخلوقا : لا يجوز أن يقال كلام الله أو القرآن حادث أو مخلوق إلا في مقام التعليم ، لأنه لاطلاقه بالمعنى الأول على الصفة القديمة ربما يتوهم أن هذه الصفة حادثة أو مخلوقة ، ولذلك ضرب الامام أحمد ابن حنبل رضي الله تعالى عنه وحبس على أن يقول بخلق القرآن فلم يقل ، ثم اعلم أن جميع الكتب المنزلة قد نسخت بالقرآن تلاوتها وبعض أحكامها ، والله تعالى أعلم

ومما يجب شرعا على كل مكلف الايمان بالقضاء والقدر ، كما وردت

النصوص الشرعية بهما ، وكما أمرنا بالايمان بهما فقد نهينا عن الخوض في مباحثهما ، ولكن لما كان الايمان بهما لابد فيه من تفسير معناهما نقول : إن المنقول عن الماتريدية في تفسيرهما : أن القدر هو تحديد الله تعالى أزلا كل مخلوق بحده الذي يوجد عليه : من حسن وقبح ، ونفع وضر ، الى غير ذلك ، أي علمه تعالى أزلا صفات المخلوقات فيرجع الى صفة العلم ، وأن القضاء إيجاد الله تعالى الأشياء على وفق علمه تعالى وتقديره لها في الازل ، فقد تبين أن القدر والقضاء راجعان الى تعلق العلم الالهي الأزلي بالاشياء وتعلق القدرة الالهية بها ، وهذا قد مر بيانه عند بيان ما يتعلق من صفات الله تعالى بالاشياء وما لا يتعلق ، ولكن لما كان خطر الجهل في فن التوحيد عظيما : صرح العلماء بوجوب الايمان بالقضاء والقدر ، ولاسيما أنه قد صرح بالايمان بهما في صحيح الاحاديث

ثم اعلم أنه — وان وجب الايمان بالقدر لكن : لا يجوز الاحتجاج به لا قبل الوقوع توصلا الى الوقوع بأن يقول الشخص : قدر الله تعالى على الزنا مثلا ، وغرضه بذلك التوصل الى الوقوع في الزنا ، وللشرع الحجة عليه في ذلك ؛ إذ يقال له من جانب الشرع وما أدراك أنه قدر عليك من الازل ذلك حتى تقدم عليه ؟ فاقدامك على الذنب ليس الا لهوى نفسك وباختيارك ، وبذلك تؤاخذ عليه ، ولا بعد الوقوع تخلصا من الحد الشرعي ونحوه ، بأن وقع شخص في الزنا مثلا وقال

قدر الله تعالى على ذلك وغرضه التخلص من الحد ، وللشرع الحجة عليه أيضا إذ يقال له : إنك أقدمت على الذنب ولا علم لك بتقديره عليك أزلا ، فاقدامك عليه ما كان إلا لهوى نفسك وجراءتك على الله تعالى ، وبذلك تؤاخذ ويجب عليك الحد ، والله تعالى أعلم

الفصل الخامس

في الايمان باليوم الآخر ، ومايشتمل عليه ، وبالبعث ، ومايتقدم ذلك : من أحوال الموت ، والقبر ، ومايتبع ذلك ، ورد الشبه التي ترد في هذا المقام

اعلم أنه مما يجب على كل مكلف شرعا الايمان باليوم الآخر ، وهو يوم القيامة ، وأوله من وقت الحشر ، وينتهي بدخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، والواجب الايمان به وبما يشتمل عليه ، كما يجب الايمان بما يتقدمه من العلامات التي ثبتت بالنصوص الشرعية ، وبما يتقدمه أيضا من قبض الروح ، وأحوال القبر ، وأمثال ذلك مما ثبت في النصوص الشرعية الصحيحة ، وتفصيل جميع ذلك فيما سيتلى عليك فنقول : —

قد وردت الآيات ، والأحاديث الصحيحة ، واتفق أهل السنة والجماعة أن لكل إنسان روحا جرت عادة الله تعالى أنها اذا كانت في جسده كان حيا واذا فارقته حله الموت ، وان عمر

كل انسان مقدر بتخصيص الله تعالى لايزيد ولا ينقص حتى المقتول فانه ميت باجله فاذا انقضى أجل الانسان قبض روحه الملك الموكل بقبض الارواح ، وهوملك من أكابر الملائكة يسمى « بعزرائيل » فهو يقبض الروح ، أى يخرجها من مقرها ، ثم بعد وضع الانسان فى قبره يعيد الله تعالى اليه الروح ، ويرد اليه من الحواس والعقل ما يتوقف عليه فهم الخطاب ويتأتى معه رد الجواب ، ثم يأتيه فى تلك الحالة ملكان ويسألانه عن معتقده ، والحكمة فى هذا السؤال أن يظهر لدى الملائكة المؤمن والمطيع وغيرهما ، ويترتب على ذلك ، اما تنعم الميت فى قبره ، واما عذابه ، ويستثنى من هذا السؤال من وردت الاحاديث باستثنائه : كالانبياء وغيرهم ، كما هو مبسوط فى كتب الاحاديث ، ثم ان الميت إما أن يتنعم فى قبره ان كان مؤمنا مطيعا واما أن يعذب ، والمعذب إما أن يدوم عذابه الى يوم القيامة ، وإما أن ينقطع كما فى بعض عصاة المؤمنين ، ومن أحوال القبر ضغطته ، وهى التقاء حافتيه على الميت ، ولا ينجو منها أحد إلا من استثنى فى الاحاديث : كالانبياء

ثم اذا تصرم الزمان ، وقرب يوم القيامة ظهرت له علامات ، منها العلامات الصغرى التى ظهر منها فى هذا الزمان الكثير ، ومنها العلامات الكبرى وهى عشر : ظهور المهدى ، وخروج الدجال ، ونزول سيدنا عيسى عليه السلام ، وخروج يأجوج ومأجوج ،

وخروج الدابة التى تكلم الناس، وطلوع الشمس من مغربها ، وظهور الدجال : ويمكث فى الارض أربعين يوما ، يصيب الكافر حتى يصير كالسكران ، ويصيب المؤمن منه كهيئة الزكام ، وخراب الكعبة على يد الحبشة بعد موت عيسى عليه السلام ، ورفع القرآن من المصاحف والصدور ، ورجوع أهل الارض كلهم كفارا

ثم ينفخ فى الصور النفخة الاولى فيموت أهل الارض والسموات ، والصور هو شيء كالقرن كبير جداً ينفخ فيه سيدنا « اسرافيل » أحد كبراء الملائكة ، ثم بعد مضى زمان طويل - والخلائق موتى - ينفخ فى الصور مرة أخرى : فيبعث الله تعالى الموتى من قبورهم ، ويحشرهم الى الموقف ؛ وهو الموضع الذى يقفون فيه لفصل القضاء واجراء حسابهم ، ومن أهوال الموقف طول الوقوف فيه ، ودنو الشمس من رؤوس الخلائق حتى تكون على قدر الميل ، وخوضهم فى العرق الذى هو أنتن من الجيفة ، ويكون خوضهم فيه على قدر أعمالهم حتى ان بعضهم يلجمه العرق إلجاما ، وسؤال الملائكة لهم عن أعمالهم وتفريطهم فيها وشهادة أعضائهم وجلودهم والارض والحفظة الكرام عليهم ، ولا يصيب شيء من تلك الاهوال الانبياء والاولياء وسائر الصلحاء

ثم بعد اشتداد هول الموقف يشفع سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم « الشفاعة العظمى » وهى شفاعته فى فصل القضاء بين

جميع الخلائق عند ما يشتد الهول عليهم ، ويطول وقوفهم ، فيستشفعون به فيشفع لهم عند ربه فى ذلك ، وبعد ذلك له شفاعات كثيرة ، منهاشفاعته فى ادخال قوم الجنة بغير حساب ، ومنهاشفاعته فى عدم دخول قوم النار لقوم استحقوا دخولها ، ومنها فى اخراج العصاة الموحدين من النار ، ومنها فى زيادة الدرجات فى الجنة لأهلها ، ومنها غير ذلك كما جاء فى الأحاديث الشريفة ، ويشفع غيره عليه السلام : من الانبياء والرسل ، والملائكة ، والصحابة ، والشهداء ، والعلماء العاملين ،والأولياء

ويأخذ العباد صحفهم ، وهي كتبهم التى كتبت فيها الملائكة مافعلوه فى الدنيا ، وتوزن أفعال العباد بميزان ، وجمهور المفسرين على أن الموزون هى الكتب التى اشتملت على أعمال العباد ، بناء على أن الحسنات مميزة بكتاب والسيئات بآخر ، ويجب علينا الايمان بالوزن والميزان ، وتفويض علم حقيقة ذلك الى الله تعالى ، وتحاسب الخلائق أى يوقف الله تعالى الخلائق على أعمالهم خيرا كانت أو شرا ، قولا كانت أو فعلا تفصيلا بعد أخذهم كتبها ، ويكون الحساب للمؤمنين والكافرين ، ويستثني من ذلك من وردت الأحاديث باستثنائه ،

ثم يمر الخلائق على الصراط ، وهو جسر ممدود على متن جهنم يمر عليه الأولون والآخرون ، وهو طريق الناس الى الجنة ، فالمؤمنون الطائعون والذين غفرت سيئاتهم يمرون عليه ويخلصون الى الجنة ،

والكفار وبعض عصاة المؤمنين الذين حكم عليهم بالعذاب فى جهنم مدة يسقطون فى نار جهنم فى حال مرورهم على الصراط ، ومرور الناجين مختلف فى السرعة والبطء ، حسب مقاماتهم ، والحكمة فى المرور على الصراط ظهور النجاة من النار ، وأن يتحسر الكفار بفوز المؤمنين بعد اشتراكهم فى المرور ، ومما اشتمل عليه يوم القيامة وجود حوض عظيم لسيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم يرده المؤمنون ويشربون منه عند العطش الأكبر

ثم ان الله تعالى خلق دارين عظيمتين : احداهما دار النعيم وهى الجنة وفيها من النعيم الذى أعده الله لعباده المؤمنين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وثانيتهما دار العذاب وهى جهنم أعد الله تعالى فيها من العذاب للكفار والعصاة ما ترجف عند ذكره القلوب وتقشعر الجلود : أعاذنا الله تعالى منها ، وهاتان الداران مخلوقتان وموجودتان كما دلت على ذلك الآيات والأحاديث ، وبعد انقضاء حساب الخلائق ومرورهم على الصراط يدخل الجنة المؤمنون الطائعون من جميع الأمم وعصاة المؤمنين الذين غفرت سيآتهم أو أدركتهم شفاعة ، ويدخل جهنم الكفار وعصاة المؤمنين الذين حكم عليهم بالعذاب مدة ، أما الكفار فلا يخرجون منها أبدا ، وأما العصاة المؤمنون فمآلهم الخروج منها ودخول الجنة بعد انقضاء مدة عذابهم أو نوالهم شفاعة ، ثم يدوم أهل الجنة خالدين فى الجنة ، وأهل

النار الكفار خالدين فى النار أبد الآبدين . ودهر الداهرين ، وكل ما مر فقد ثبت بالايات الكريمة، والأحاديث الشريفة ،وهومذهب أهل السنة والجماعة ، ويجب الايمان به على كل مكلف شرعا والله تعالى أعلم

توضيحات يندفع بها بعض الشبه
الواردة على مامر فى هذا المقام

اعلم أنه قد ترد بعض الشبه على بعض ماذكر هنا فى هذا المقام ولكن هي عند من يؤمن بوجود الله تعالى ، وعظيم قدرته ، وواسع علمه ، ويعتقد أن الله تعالى هو الذى اوجد هذه الأكوان من العدم ، وصورها على صور تشتمل على دقائق الحكم ، لايصعب عليه الايمان بجميع مامر ، ولارد تلك الشبه عن عقيدته بقاطع البرهان وواضح التبيان ، واما من لم يكن مؤمنا بوجود ذلك الاله العظيم فالصواب في حقه أولا أن تقام له الادلة على وجوده تعالى ، ثم بعد ذلك تكشف شبهته فى أمثال هذه العقائد، وتوضيح رد تلك الشبه أن يقال : إن الذى ثبت فى النصوص الشرعية أن للانسان روحا تتعلق بجسده ويتسبب عنها حياته واذا فارقته بقبض الملك لها حله الموت ، فبعض علماء الاسلام خاض فى البحث عن حقيقة هذه الروح ولكن لم يقم معه برهان قاطع شرعى أوعقلى على بيان حقيقتها ، وبعضهم — وهم أهل الطريق الأسلم — ترك الخوض فى هذا البحث اذ لم يرد عن الشارع دليل على حقيقتها بل قد ورد فى الشرع ما يشير إلى أن ترك البحث

عن حقيقتها هو الأولى ، وعلى طريقة هؤلاء العلماء يكفى فى تصديق النصوص الشرعية الواردة فى وجود الروح أن يعتقد المكلف أن لكل انسان روحا، وهى شىء موجود الله أعلم بحقيقته ، وليس فى القول بوجوده مايخالف العقل،وعدم الاحساس به كما يقول بعض الجهلة : بأنا لا نرى شيئا يخرج من فم الميت عند موته لا يقتضى عدمه ، إذ ربما يكون عدم الاحساس به للطافته كالهواء ، أو كالأثير الذى يقول به الطبيعيون المتأخرون أو لدقته جدا كالحيوانات الصغيرة جدا التى توجد فى المياه، وكثير منها لا يرى حتى بالمجسمات للمرئى ، أو لغير ذلك ، وكونه بتلك اللطافة أو الصغر وتنشأ عنه الحياة لا غرابة فيه ، فكم من عقار أو نبات لطيف أو صغير جدا تنشأ عنه حوادث عظيمة لا تحدها العقول ، وكذلك شرارة النار اذا لامست كمية كثيرة من الأجسام القابلة للالتهاب ، وكما فى الجزء الصغير من السم إذا دخل الجسد وما يحدث عنه ، وأمثال ذلك كثير مما هو لطيف، أو صغير تنشأ عنه حوادث عظيمة ، فلا غرابة فى تسبب الحياة فى الجسد عن الروح ، وان كانت أمرا لطيفا أو صغيرا جدا لا سيما ان الحياة لا تنشأ عن الروح بطبيعتها بل بخلق الله تعالى والروح انما هى سبب عادى فلا اشكال فى ذلك أصلا ، ثم وان تكن الروح بتلك اللطافة أو الصغر فلا مانع من أن يجعل الله تعالى للملك قدرة على قبضها واخراجها من الجسد ، ألا ترى المغناطيس قد جعل الله تعالى فيه خاصية جذب الحديد فيجذب

ألطف وأدق برادة منه ولو لم تر بالعين ولا بجسمات المرئى ، وكل ذلك من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى ، فلا شيء يوجب الاشتباه

ثم لما وردت نصوص الشريعة بوجوب اعتقاد البعث ، أى، أن الله تعالى يعيد الأموات يوم القيامة ويحييهم ، كان المشركون فى عصر الرسول عليه الصلاة والسلام يوردون الشبه على القول بالبعث ، ويقولون : كيف يحيي الله تعالى الأموات بعد مفارقتهم الحياة وفنائهم وتفرق أجزائهم بين أجزاء الأرض ؟ فكان القرآن الشريف يرد عليهم تلك الشبه فى آيات كثيرة بما معناه : ان الله تعالى تام القدرة ، كامل العلم ، لا يعجزه شيء مهما كان عظيما ، ولا يخفى على علمه شيء مهما كان دقيقا خفيا ، والذى أوجد الكائنات من العدم بذلك الاتقان والاحكام هو قادر على اعادة الأموات بعد الفناء ، واحيائهم للحساب والجزاء ، ويضرب لهم سبحانه الأمثال التي تقرب ذلك لعقولهم : بأن الله تعالى يحيي الأرض بعد موتها بانزال المطر عليها فتصبح مخضرة مزهرة بهجة بعد أن كانت قاحلة يابسة لاترى فيها أثرا للحياة إلى غير ذلك من الأمثال التى ترفع عنهم شبه البعث التى قامت عندهم

ثم ان علماء الشريعة الأعلام ، لما وجدوا للفلاسفة المنكرين للبعث شبها أخرى ، يزعمون فيها حصول محالات عقلية على القول بالبعث قال أولئك العلماء — رحمهم الله تعالى : ان الواجب شرعا على كل مكلف أن يعتقد بحصول البعث والاعادة ، وان ذلك يحصل

على وجه لا يستلزم محالا عقليا ، والله أعلم بكيفية ذلك ، ولا يلزمنا لصحة الايمان بالبعث أن نبين الكيفية التى يجريها الله تعالى فى أمر البعث ، بل نفوض علمها اليه تعالى ، ولكن للمحافظة على افكار الضعفاء فى الدين من الاضطراب نقول فى توضيح ذلك : من الممكن أن المعاد من الجسم بالبعث هو جميع أجزائه الأصلية ، أى الباقية من أول العمر إلى آخره لا الاجزاء الفضلية التى تتكون فى الجسم من الأغذية ثم تتحال ويخلفها غيرها وهلم جرا ، وإذا كان الأمر كذلك فما المانع من أن الله تعالى العظيم القدرة الواسع العلم يحفظ تلك الأجزاء الأصلية للانسان بعد موته من التفرق ، ومن زوال صورتها ، ومن دخولها فى أجزاء أصلية لحيوان آخر يا كل انسانا ، وان دخلت فى تركيب الاجزاء الفضلية لذلك الحيوان فتنفصل عنها عند انحلالها بموت ذلك الحيوان ، ثم عند الاعادة والبعث يعيد الله تعالى تعلق الروح بتلك الاجزاء الاصلية للانسان ويضم اليها أجزاء فضلية يكمل بها مقدار الانسان وهيكله كما كان قبل الموت سواء كانت تلك الاجزاء عين ما كانت قبل موت الانسان أوغيرها ، ويكون الاحساس بالتنعيم والتعذيب انما هو لمجموع الروح وهذه الاجزاء الاصلية . ويصدق على هذه الكيفية انها اعادة ؛ إذ قد أعيد تعلق الروح بالاجزاء الأصلية التى هى حقيقة الانسان بعد أن فارقتها ، وأعيد لهذه الاجزاء الاصلية الحياة ، وأعيدت اليها أجزاء فضلية لكل

بها هيكل الانسان الذى كان قبل الموت ، واذا كان الحال كذلك فلا يقال من شبه أولئك الفلاسفة : ان الانسان المنعم أو المعذب هو غير الذى كان قبل الموت ، ولا يقال : ان الروحين تتعلقان بجسد واحد فيما اذا أكل انسان انسانا وصارا بالاغتذاء واحدا ، ولا يقال ان مادة واحدة حاصلة لأناس كثيرين حيث إن المشاهد على ظاهر الارض أجزاء جثث الموتى القديمة ، وقد زرع فى الارض زروع كثيرة ، وغرس فيها أشجار واغتذى منها الناس ، وانعقد ذلك فى أبدانهم لحما ودما ، لأنا مع جميع ذلك نقول : ان الاجزاء الاصلية التى كانت مع الروح المتعلقة بها قبل الموت انسانا هى بعينها مع الروح المتعلقة بها عند البعث ذلك الانسان بعينه ، وقدرة الله تعالى وعلمه يصلحان لاجراء هذه الكيفية التى لا تتضمن محالا أصلا ، وعدم احساسنا بها لا يستلزم عدمها ، إذ يحتمل أننا نشاهد تفرق الاجزاء الفضلية ، ولا نشاهد الاجزاء الاصلية التى هى حقيقة الانسان ، اما لدقتها ، واما للطافتها ، واما لغير ذلك : وكم من العوالم لم تزل فى حيز الخفاء ، محجوبة عن حواسنا ، ولا مانع أن تكون هذه من هذا القبيل ، والملخص أن نصوص الشريعة نطقت بالاعادة والبعث فنحن نؤمن بذلك ، ونعتقد أنه سيكون على وجه لا يستلزم محالا ولا يلزمنا بيان الكيفية على وجه التفصيل وان احتجنا إلى هذا البيان نجد أن مثل تلك الكيفية التى

قررناها كافية وافية فى اقناع العقول ، ودفع الشبه ، كما لا يخفى على المتأمل المنصف ، وان كنا غير مكلفين باعتقاد هذا التفصيل الذى شرحناه ، بل الذى نكلف به الايمان بالبعث على وجه لا يستلزم محالا كما تقدم ، ثم نقول : وفي القول بالاجزاء الأصلية التى مر شرحها ، تندفع الشبه عن نعيم القبر وعذابه اللذين وردت بهما النصوص الشرعية اذ يقال : ما المانع أن الله تعالى يجعل للروح تعلقا خاصا بتلك الاجزاء الأصلية بحيث تحس بالنعيم أو العذاب وهي فى القبر ، ونحن وان كنا نشاهد الجسد قد تفرق وتلاشى ولا حياة فيه فتلك الأجزاء الأصلية يجرى فيها التنعيم والتعذيب ، ولا نرى شيئا من ذلك لخفائها عن أبصارنا ، لدقتها ، أو للطافتها ، وكذلك تندفع الشبه الواردة على ما جاء من نصوص الشريعة أن بعض الناس هم أحياء عند ربهم يرزقون كالشهداء ، فانه يقال أيضا لا مانع أن الله تعالى يجعل لأرواحهم تعلقا خاصا بأجزائهم الأصلية بحيث تكون حية حياة تقبل الرزق والتنعيم بنوع مخصوص ، هو الذى اخبرت عنه النصوص ؛ وان كنا لانرى ذلك ، وكل ذلك من الجائزات العقلية التى لا تستلزم محالا وداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى ، ومن اطلع على ما يقوله المتأخرون من الطبيعيين فى أحوال الحيوانات الصغيرة التى لا ترى الا بأكبر المجسمات للمرئى من أن لها ادراكا واحساسا وسعيا على معاشها واحتراسا على حياتها ، ومقاتلة بعضها لبعض ، واحتيالا على تحصيل رزقها

وغير ذلك لم يستبعد ما قررناه فى حق الأجزاء الأصلية للانسان وقبولها لتعلق أرواحها بها واحساسها بما يريده الله تعالى لها من نعيم أو عذاب من غير أن نشعر نحن بشىء من ذلك . والله على كل شىء قدير

ثم ما ورد من أن أعضاء الخلق وجلودهم والارض تشهد عليهم هو من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى كما تقدم توضيح نظيره فى بيان معجزات الرسل : من أن منها نطق الجمادات ، فحيث ان الله تعالى هو الخالق لصفة الكلام فى الانسان ولا يتوقف خلقه لها على حياة ولا غيرها كما أقيم على ذلك البرهان ، فلا مانع أنه تعالى يخلق فى تلك الاشياء الكلام ، وتشهد على العصاة بأعمالهم ، وحكمة ذلك تخويف العباد من ارتكاب المعاصى عند ما تخبرهم الرسل أن أعضاءهم وجلودهم والأرض التى يعصون عليها تشهد عليهم يوم القيامة ، وأيضا اظهار عظمة قدرة الله تعالى فى ذلك اليوم وظهور بالغ حجته على العباد « ولله الحجة البالغة »

ثم ان الصراط الذى يمد على متن جهنم لمرور الناس عليه ، كما تقدم شرحه ، ليس فيه شىء يستبعده العقل ، لكن فى بعض روايات وردت فى وصفه ليست من الروايات المتواترة ، وان اشتهرت أن الصراط يكون أدق من الشعرة ، وأحد من السيف ، وهذه الكيفية

قد يستبعدها بعض الضعفاء وان كانت من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة القادر العظيم ، ومع ذلك فقد نازع فى صحة ذلك بعض العلماء الاعلام : كالعز بن عبد السلام ، والشيخ القرافى ، والبدر الزركشى ، كما نقله الباجورى على « الجوهرة » قالوا : وعلى فرض صحة تلك الرواية فهو محمول على غير ظاهره ، بأن يؤول بأنه كناية عن شدة المشقة ، زاد القرافي أن الصحيح أن الصراط عريض وله طريقان يمنى ويسرى : فأهل السعادة يسلك بهم ذات اليمين ، وأهل الشقاوة يسلك بهم ذات الشمال ، وعلى هذ التقرير فلااشكال يبقى هنا حتى على أفكار الضعفاء، ويكفى المكلف الايمان بوجود الصراط ولو على هذه الكيفية والله تعالى أعلم

ثم مما تقدم فى العلامات الكبرى ليوم القيامة طلوع الشمس من مغربها ، والذى ورد فى ذلك الحديث الشريف أنها تطلع من مغربها حتى تتوسط السماء ثم تعود فتغرب فى جهة المغرب وتستمر بعد ذلك على عادتها الاصلية ، وهذا من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى ، فمن يؤمن بوجود الله تعالى وعظيم قدرته لا يصعب عليه الايمان بذلك ، وقد مر توضيح جواز هذا الأمر فى نظيره من وقوف الشمس ورجوعها معجزة لسيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولسيدنا يوشع عليه السلام عند بيان معجزات الرسل وقررنا ذلك هناك بأوضح بيان : فارجع اليه ان شئت فى فصل المعجزات ، والله تعالى أعلم

ثم مما تقدم أيضا من تلك العلامات خروج يأجوج ومأجوج ، وهما أمتان عظيمتان قد جاء ذكرهما فى القرآن الشريف ، وان ذا القرنين سد عليهما طريق خروجهما من أرضهما بالسد الذى اصطنعه ، وأن ذا القرنين قال ما معناه : ان هذا السد اذا جاء وعد ربى جعله دكاء أي منهدما ، وفسر المفسرون مجيء وعد الله بمجيء يوم القيامة ، أى قربه ، وقد جاءت أحاديث صحيحة بتفصيل خروج يأجوج ومأجوج فى آخر الزمان ، وان ذلك من علامات القيامة الكبرى فوجب على كل مكلف الايمان بذلك ، وما يقال من أن علماء الجغرافيا قد ساحوا الارض ولم يعثروا على محل يأجوج ومأجوج ، فهو كلام لا يمنع صدق تلك النصوص الشرعية الواردة بوجودهم فى الارض ، وبيان ذلك أنا نقول أولا : لا نسلم أن الجغرافيين ساحوا جميع بقاع الارض ولم يدعوا بقعة منها الا وردوها ، وانما ساحوا البقاع المسكونة أو القريبة منها ، وكم من بقاع كثيرة ، وأودية ، وجبال توجد فى أطراف الأرض لم تطأها أقدامهم لاسيما فى الأطراف الشمالية خلف جبال الجليد ، ونهاية المنطقة المنجمدة الشمالية كما يعلم ذلك من الاطلاع على شروحهم المسطورة فى كتبهم ، ولعل هاتين الأمتين توجدان فى بعض بقاع الأطراف التي لم يصل اليها أحد من أهل الجغرافيا ، وثانيا قد قال علامة المفسرين الامام الرازى رحمه الله تعالى : ان الأظهر أن موضع السد فى ناحية الشمال ، ولا يخفى على العارف

بتخطيط الأرض أن جهات الشمال بعد سيبريا توجد جبال جليدية لاتنقطع عنها الثلوج فى جميع الفصول ، ولا يمكن لأحد فى هذه العصور سلوكها ، ومن المعلوم أيضا أنه يوجد بعدها مسافة من الارض ممتدة إلى انتهاء الأرض وحينئذ نقول : ما المانع أنه يوجد خلف هذه الجبال أراض منخفضة عنها بحيث يتسبب عن انخفاضها خفة الثلوج عنها بحيث تصلح لسكنى البشر ، وأن يكون يأجوج ومأجوج ساكنين فى تلك الاراضى المنخفضة ، ومن الجائز أن يكون فى زمان ذى القرنين الذى مضى عليه الى هذا الزمان ألوف من السنين يوجد وادمنخفض موصل لتلك الأراضى وطريق لها ، وكانوا يخرجون منه للأمم المجاورين لهم خارج تلك الجبال ويقاتلونهم فسد عليهم ذوالقرنين مسلك ذلك الوادى وحصرهم خلف تلك الجبال ، وصاروا غير قادرين على الخروج من الوادي لوجود السد ، ولا يمكنهم تسلق الجبال لوجود الثلوج عليها ، ثم بعد ذلك حدثت حوادث جوية ، وتتابع نزول الثلوج عليها حتى سدت ذلك الوادى وملأته حتى ساوته بالجبال التى حوله وخفى أثره ، ثم عند قرب يوم القيامة يذوب الثلج منه بأسباب جوية أو أرضية كالزلزلة ويتيسر للأمتين المذكورتين هدم السد والخروج من ذلك الوادى طبق ما جاءت به النصوص الشرعية ، ووجود الحوادث الجوية التى توجب تراكم الثلوج فى بعض الأماكن مئات من السنين ثم زوالها بأسباب أخرى غير مستحيل لا عقلا

ولا عادة ، بل اذا فتشنا التاريخ نجد لذلك شواهد ظاهرة كثيرة على وجه الأرض ، وقدرة الله تعالى صالحة لاجراء تلك الأعمال كلها واتمام ذلك التدبير ، وحيث كان ذلك جائزا داخلا تحت تصرف القدرة الالهية ، وقد وردت النصوص بخروج هاتين الأمتين فى آخر الزمان فنحن نؤمن بذلك ونصدقه ، وبما قررناه ارتفعت الشبهة التى مستندها سياحة الجغرافيين

هذا : وأما ما يذكر فى بعض الكتب أن محل يأجوج ومأجوج فى المحل الفلانى من الأقاليم القريبة المعمورة ، وأن الملك الفلانى الأموى أو العباسى أرسل إلى السد من نظره إلى غير ذلك من الأخبار ، فهى من تأليفات القصاص : لا أصل لها يعتمد عليه ، وان اغتر بنقلها بعض المؤلفين ، والله تعالى أعلم

ثم مما ذكر فى تلك العلامات ليوم القيامة نزول سيدنا عيسى عليه السلام من السماء ، وهو أمر جائز عقلا كما أن صعوده الى السماء عند ما طلبته اليهود لتقتله هو أمر جائز أيضا ولا يترتب على ذلك أدنى محال ، فما المانع أن الله تعالى يصعده وينزله بواسطة الملائكة الذين أعطاهم الله تعالى القدرة على الصعود والهبوط بين السماء والأرض كما يأتى بيان ذلك ويحفظ الله تعالى حياته من جميع ما يتوهمه المتوهمون فى حق من يصعد إلى فوق كرة الهواء ، فان احتياج الانسان لتنفس الهواء ما هو إلا أمر عادى والله تعالى قادر على حفظ الحياة

بدونه ، وكذلك من تلك العلامات خروج الدابة التى تكلم الناس ، هو أمر جائز والله تعالى قادر على إعطاء الدابة صفة الكلام ، وكذلك وجود الدخان فى الأرض أربعين يوما كل ذلك من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف القدرة الالهية لا شيء من ذلك يستلزم محالا ، فنؤمن بجميع ذلك ، ونصدق به ولله تعالى حكم فى جميع ما تقدم : من أحوال البعث ، والسؤال ، والميزان والصراط ، وغير ذلك نجد كثيرا منها مذكورا فى مطاوى كلام علماء الاسلام ، والله يتولى هدانا أجمعين

ولنختم هذا الباب بذكر أدلة عقلية على حصول البعث والجزاء وهى وان لم تكن برهانية قاطعة فهى اقناعية تذعن عندها العقول ، وتطمئن لها القلوب ، وبتواردها بمجموعها على الفكر : يجزم العقل بوقوع البعث والجزاء ، ولا يعير للشك اذنا صاغية

اعلم أن البعث والجزاء وإن كان المشهور أن دليل جوازهما عقلى كما علمته مما مر ، ودليل حصولهما بالفعل شرعى ، وهو النصوص الشرعية الواردة في القرآن الشريف ، والحديث المنيف . لكن إذا دقق النظر وجد أن لحصولهما دلائل عقلية اقناعية تطمئن لها القلوب ، كما قلنا ، فاستمع ما يتلى عليك من كلام العلماء الأعلام فى ذلك فنقول : —

إنه بعد إقامة البراهين القاطعة على وجود إله العالم ، واتصافه بصفات الكمال : من الحكمة ، والعدل ، والرحمة لخلقه : لا شك أن

كل معتقد لذلك يظهر له أن من حكمته تعالى وعدله بعد أن خلق الخلق ، وأعطاهم عقولا يميزون بها بين الحسن والقبيح ، وقدرا بها يقدرون على الخير والشر أن يمنعهم عن سوء اعتقادهم به ، وعن الجهل والكذب ، وإيذاء الصالحين من خلقه ، وغير ذلك ، من القبائح ويرغبهم فى عمل الخير واتصافهم بالأخلاق الفاضلة التي ينتظم بها معاشهم ، ومن المعلوم أن هذين الأمرين لا يتمان إلا بربط عمل الخير بالثواب وعمل الشر بالعقاب ، وكل من الثواب والعقاب غير حاصل في دار الدنيا ، فلابد من دار أخرى يحصل فيها ذلك ، ولا يقال : إنه يكتفى فى الترهيب والترغيب بما أودع فى العقول : من تحسين الخيرات ، وتقبيح المنكرات ، لأن الهوى ، والنفس يدعوان الانسان إلى الانهماك فى الشهوات الجسمانية ، واللذات الجسدية ، واذا حصل هذا حصل هذا التعارض بين ما تدل عليه العقول ، وبين الهوى والنفس فلابد من مرجح قوى ، ومعاضد كامل ، وما ذلك إلا ترتيب الوعد والوعيد ، والثواب والعقاب على الفعل والترك

ثم من حكمة السلطان الحكيم الرحيم أن يبعث نفوس رعيته للعطف على الفقراء ، ليعينوهم بشيء من الاموال على مصالح معاشهم ، واللائق بالاغنياء أن تكون تلك الاعانة منهم على وجه الرغبة ، وانشراح الصدر ، وبذلك يصلح حال الفقراء ، ويندفع عنهم الشقاء ويفارقهم العناء فى الجملة ، وحيث إن النفوس مفطورة على حب

المال ، ولا تسمح بصرف شيء منه إلا إذا وجدت عوضا هو خير منه ، فكان من حكمة الله تعالى أن يجعل دارا غير هذه الدار يكافىء فيها بالخير المتصدقين على الفقراء والمساكين ، ويجازى ما نعى الصدقات والزكوات بما يستحقون ، فاذا علم الأغنياء بوجود دار أخرى ، وأنهم يكافؤن فيها على الصدقة بعشر أمثالها فحينئذ ينفقون على الفقراء والمساكين برغبة وانشراح صدور ، لما يرجونه من نوال الأجور، بل : يرغبون أيضا فى الصدقات الجارية التى لاتنقطع فيرصدون الأوقاف الجسيمة ، ويشيدن للصلوات ، والاذكار ، واطعام الطعام ، المساجد ، والزوايا ، والتكايا العظيمة فينتج عن ذلك من الخيرات مالا يدخل تحت الحصر ، وكل ذلك ناشيء عن الرغبة فى نعيم الدار الآخرة ، والنجاة من عذابها ، ولولا ذلك لما كان من تلك المآثر الخيرية إلا أقل القليل

ثم ان السلطان العادل الحكيم الرحيم اذا كان له جمع من الرعية وكان بعضهم أقوياء وبعضهم ضعفاء : كان من حكمته ، وعدله ، ورحمته : أن ينتصف للمظلوم الضعيف من الظالم القوى ، والله سبحانه وتعالى سلطان حكيم عادل رحيم ، فمن حكمته وعدله ورحمته أن ينتصف لعبيده المظلومين من عبيده الظالمين ، وهذا الانتصاف لم يحصل فى هذه الدار ، لأننا نرى المظلوم قد يبقى فيها مهانا فى غاية الذلة والقهر مسلوب المال ، مفضوح العرض ، والظالم يبقى فى غاية العزة والقدرة

فلا بد من دار أخرى يظهر فيها هذا العدل وهذا الانصاف

ثم انه لو لم يحصل للانسان معاد لكان الانسان أخس من جميع الحيوانات فى المنزلة والشرف، وبيان ذلك:أن مضار الانسان فى الدنيا أكثر من مضار جميع الحيوانات ؛ فان سائر الحيوانات قبل وقوعها فى الآلام والاسقام تكون فارغة البال ، طيبة النفس ؛ لانه ليس لها فكر وتأمل،أما الانسان فبسبب ماله من العقل يتفكر أبدا فى الاحوال الماضية ، والاحوال المستقبلة ، فيحصل له بسبب أكثر الاحوال الماضية أنواع من الحزن والاسف،ويحصل له بسبب أكثر الاحوال الآتية أنواع من الخوف ، فثبت أن حصول العقل للانسان سبب لحصول المضار العظيمة فى الدنيا ،والآلام النفسانية الشديدة القوية ، أما اللذات الجسمانية فهى مشتركة بينه وبين سائر الحيوانات ، لان السرقين فى مذاق الجعل طيب ،كما أن أخر الحلويات فى مذاق الانسان طيب فلو لم يحصل للانسان معاد : به تكمل حالته ، وتظهر سعادته لوجب أن يكون كمال العقل سببا لمزيد الهموم ، والغموم ، والاحزان ، من غير جابر يجبر ذلك ، ومعلوم أن كل ما يكون كذلك فانه يكون سببا لمزيد الخسة ، والدناءة ، والشقاء ، والتعب الخالية عن المنفعة ، فثبت أنه لولا حصول السعادة الأخروية لكان الانسان أخس الحيوانات ، حتى الخنافس ، والديدان ، ولما كان ذلك باطلا قطعا ، علمنا أنه لا بد من الدار الآخرة ، والانسان خلق للآخرة لا للدنيا :نعم

ان هذه الدار هي كالمميز بين الاخيار والاشرار ، ليجزى الاولون بالثواب والآخرون بالعقاب ؛ لان كل من كان شريرا فالنار أولى به، ويكون حظه من الوجود مايحصله من لذات هذه الدار الفانية ، فلذلك نراها موفورة لكثير من أهل الزيغ الاشرار ، منغصة على كثير من أهل الايمان الاخيار

ومن هذا المقام يعلم أن مذهب المنكرين للمعاد من الكفار شر لا يماثله شر ؛ لانه يلزم عنه أنه لا حلال ولا حرام أصلا ، ومع هذا يمتنع المعراز ، وقولهم : بأن نظام العالم يكمل بمعرفة الانسان ماله من الحقوق ، وما عليه من الواجبات الانسانية ، وهذه المعرفة تكمل له بالعلم الصحيح التام العام، نقول في جوابه: انهم قد غفلوا عن أن الاهواء والشهوات ، وحب اللذات : لا يقاومها مجرد القوانين التي يقيمها العلم السياسي ، فلا بد من وازع آخر يزع النفوس عن المضار ، ومرجح يرجح اتباع طريق الخير ، وهجران سبيل الشر ، وهو الايمان بالمعاد ، والمكافأة على الاعمال ان خيرا فخير وان شرا فشر ، والا فليتأمل العاقل في الانسان اذا كان يعتقد أنه مثل نبات الارض ينبت ثم يزول لا إلى رجعة ، وليس له حظ من وجوده الا لذاته الحيوانية التي ينالها مدة حياته ، فمهما سن له العلم السياسي من الضوابط لمعرفة ماله وماعليه . فاذا قدر على قتل سواه وأخذ ماله الذى يبلغ الملايين بدون أن يطلع عليه أحد من الناس ، أوهتك أشرف عرض وبلوغ لذة بدون اطلاع

أحد ، فهل يظن أن تلك القوانين التى سنها له العلم السياسى تردعه عن ارتكاب ذلك ، لا يقول بذلك الا مكابر ؟ ومن المعلوم أن الانسان مفطور على حب ذاته ، فمن يدرى به حق الدراية لا يأمن له فى شىء الا اذا وجده مرتبطا بالدين ، وانا نرى أن بعض الامم تعتقد المعاد ويظهر فيها من بعض أفرادها ما يظهر من الفساد ، فكيف يكون حالها لو نسخ هذا الاعتقاد منها ؟ فبلا شك أن فسادها يصير عظيما جدا ، على أننا نرى الامم التى انتشر بينها العلم الدنيوى ، لا سيما السياسى فى هذا الزمان لا تزال آخذة فى سبيل الشرور ، بل كلما ازداد ذلك العلم بينها ازدادت شرورها ، وفشا بينها الزنا الذى يضيع الانساب ، ويحل عقد التناصر ، وقتل النفس ، والانتحار ، وازالة العقل بالمسكرات ، والاحتيال : بفنونها وصنائعها على سلب الاموال ، والغش ، والخديعة ، وكثير من الاخلاق المخلة بنظام الهيئة الاجتماعية ، وما ذلك الا لأن علومها التى برعت فيها ليس لها فى اعتقاد المعاد نصيب ، وبالظن أن تلك الامم لولا بقية من اعتقاد المعاد قائمة بينها لوجدناها قد هوت للدمار ، وأخذت تنمحى من لوح الوجود

ومما يضحك الثكلى أن القوم الذين ينكرون البعث والمعاد لما لاحظوا أن العلم لا يتكفل بنظام الهيئة الاجتماعية الا اذا كان تاما عاما فى جميع الافراد الانسانية اشترطوا فى تكفله بذلك أن يكون تاما عاما ثم قالوا : لا بد من ذلك يوما ما الا أن ذلك بعيد جدا ، وربما يلزم له

ألوف من الاجيال ، فهم فى رفضهم لاعتقاد المعاد . وتعنيهم فى العلم هذه الامانى الواهية مثل الطبيب الاحمق الذى يقول للمريض بالمرض القتال : اترك الحمية ، وكل ما شئت ، وانى بعد كذا وكذا من السنين آتيك بدواء يكون به شفاؤك ، فالى أن يأتيه بذلك الدواء يكون المريض قد هلك ، وأصبح عظاما نخرة ، على أنه ليس من حسن التدبير ، وكياسة الرأى ، والاخذ بالحزم مع عدم اعتقاد أولئك المنكرين للمعاد أن يجاهروا به بين العموم ، حتى يروا أن العلم الذى يزعمونه بمجرده متكفلا بحفظ نظام العالم قد تم وعم ، والا فهم بمجاهرتهم بهذا القول الباطل قد فتحوا باب الدمار على العالم ، ونعوذ بالله تعالى أن يشيع هذا الفكر بين الامم ، ومعاذ الله تعالى أن يشيع والعقول تأباه ، هدانا الله واياهم لما فيه خير الانام

والنصيحة لهؤلاء المنكرين أن يأخذوا بالحزم والاحتياط ، ويتصوروا أنهم اذا صدقوا بالمعاد ، وتأهبوا له فاذا كان حقا نجوا ، وان كان باطلا لم يضرهم هذا الاعتقاد ، غاية ما فى الباب أن يقال: انه تفوتهم اللذات الجسمانية ، لكن هذه اللذات يجب على العاقل أن لا يبالى بها ، لامرين أحدهما: أنها فى غاية الخساسة ، لانها مشترك فيها الخنفساء ، والديدان ، والثانى ، أنها منقطعة سريعة الفناء والزوال فالحرص عليها لا يساوى ترك الحزم والاحتياط فى الامر الذى تخشى عواقبه ، والله الموفق

الباب الثالث

فى رد شبه عن نصوص شرعية تعتمد في الاعتقاد ، أو التوفيق بينها وبين مايثبت بالدليل العقلى القاطع : مما ينافى المعانى الظاهرة لتلك النصوص ، وفيه أربعة فصول

اعلم أننا فى هذا المقام نحتاج الى ثلاث مقدمات

«المقدمة الاولى» ليعلم أن النصوص الشرعية التى يعتمد عليها فى الاعتقاد ، كما يعتمد عليها فى أحكام العبادات ، وأحكام المعاملات : هي الآيات القرآنية ، وبعض أحاديث نبوية : ثبت نقلها لنا عن الرسول عليه الصلاة والسلام ثبوتا قطعيا تسمى بالمتواتر ، أو بعض أحاديث ثبت نقلها عنه عليه السلام ثبوتا قريبا من القطعى يوجب طمأنينة القلب ، والطمأنينة هي فوق الظن ودون اليقين ، وتسمى هذه الاحاديث بالمشهورة ، ثم ان كل نص من هذه النصوص يجب علينا أن نعتمد فيه معناه الظاهر المتبادر منه ، ولا يسوغ لنا تأويله وصرفه الى معنى آخر غير متبادر الا اذا قام دليل عقلى قطعى يناقض معناه الظاهر ، فحينئذ يكون قيام ذلك الدليل العقلى قرينة دالة لنا على أن معناه الظاهر غير مراد للشارع بل مراده معنى آخر غير مايتبادر منه ، فنؤول النص حينئذ ، ونصرفه الى معنى آخر غير الظاهر المتبادر على سبيل الاحتمال ،

يكون قابلا له ، وغير مناقض لذلك الدليل العقلي القطعي : هذه هي القاعدة الكلية، في النصوص الشرعية التي اعتمدها أهل السنة والجماعة ، وانما لم يجز ارادة غير المعنى الظاهر من النص الا لداع يدعو اليه لأن الأصل في التخاطب ارادة المعنى الظاهر المتبادر دون خلافه ، إذ ارادة غير الظاهر من غير داع ولا قرينة يكون خللا في الافادة والاستفادة، وفي ذلك من المفاسد ما لا يخفى، وانما انحصر الداعي إلى ترك الظاهر بمعارضة الدليل العقلي القاطع ، لأن رفض هذا الدليل رفض للأصل الذي ثبت به صدق الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو العقل ، إذ لولاه لما أمكننا الاستدلال على صدقه عليه السلام بدلائل المعجزات ورفض العقل يوجب رفض الشرع ، وأما معارضة الدليل العقلي الظني فلا تكون داعيا لترك الظاهر من معني النص ، لأن رفض الدليل الظني لا يوجب رفض العقل كما هو واضح لاحتمال أن هذا الظن باطل في نفس الأمر ، فلو تركنا الظاهر من النص لأجل الدليل الظني لكنا في معرض أن يكون اعتقادنا خطأ لاعتمادنا على الظن، وحينئذ لا نعذر في ذلك اذ لا ضرورة تدعونا اليه كما تدعونا الضرورة عند معارضة الدليل العقلي القطعي ، على أن اتباع الدليل الظني وترك ظواهر النصوص يوجب اختباطا واختلاطا في الاعتقاد لا يحد، فإن الظنون كثيرة ، والاعتقاد في الشرائع انما يعتمد فيه اليقين ، فكان الصواب أن يتمسك بظواهر النصوص اليقينية الورود . ولا يتحول

عنها لمجرد الظنون، ثم قد يوجد فى الاحاديث النبوية نصوص لاتتوفر فى نقلها عن الرسول عليه السلام الشروط التى تبلغ بها درجة المتواتر أو المشهور ، فلا يكون ثبوت ورودها يقينيا بل ظنيا ، وتسمى بالآحاد ، ويعتمد عليها فى أحكام العبادات ، والمعاملات ، ولايجب أن يعتمد عليها استقلالا فى الاعتقاد حيث إنها ظنية ، والاعتقاد لا يعتمد على الظن ولكن اذا نقلها العدول ، وصارت معتمد الفقهاء فى الاحكام : لايجوز إنكارها حيث لم يعارضها معارض عقلى ، لئلا يجر ذلك إلى إنكار المتواتر والمشهور الموجب إنكارهما الكفر ، أو التضليل والعياذ بالله تعالى : نعم اذا اكتنف الآحاد مايقويها ويجعلها يقينية الثبوت : فيعتمد عليها حينئذ فى الاعتقاد ، كما قيل فى حديث عذاب القبر ، والله سبحانه وتعالى أعلم

المقدمه الثانية : اعلم أنه لا يجب علينا شرعا من الاعتقادات إلا ما قام عليه الدليل العقلى القاطع الذى لا يحتمل النقيض أو ما قام عليه الدليل الشرعى بأن نقل لنا عن الرسول عليه الصلاة والسلام آية قرآنية أو حديث متواتر أو حديث مشهور يدل على ذلك ولا يجب علينا تقليد غير رسول الله المعصوم عليه الصلاة والسلام فيما ثبت عنه قطعيا وأما إذ [illegible]ت لنا مسئلة اعتقادية عن أكبر علماء الامة الاسلامية من [illegible] دليلها العقلى القاطع أو دليلها الشرعى الثابت قطعيا عن الرسول عليه الصلاة والسلام فلا يجب علينا تقليده فى تلك المسئلة

لاسيما اذا كانت مناقضة لظاهر من ظواهر نصوص الشريعة التى تعتمد فى الاعتقاد: نعم اذا أول بعض العلماء الذى يعتمد عليهم فى فهم النصوص الشرعية بعض تلك النصوص بتأويل مناسب موافق للقواعد الشرعية والأصول العربية فالأخذ بتأويله سائغ غير مضر فى عقيدتنا اذا ظهر لتأويله داع قوى مثل الدليل العقلى القاطع الذى يحمل على التأويل وصرف النص عن ظاهر معناه فانه حينئذ يكون الأخذ بتأويله هو الصواب ولا يقال إننا قلدنا ذلك العالم فى الاعتقاد وانما يكون اعتقادنا معتمدا على النص وقلدناه بفهم النص وتأويله لانه هو أعلم منا بذلك ، فمن هنا يظهر لك خطأ بعض أهل هذا العصر فى تقليد فلان الفلكى أو فلان الجغرافى أو فلان الجيولوجى المشهورين فى فنونهم فى بعض مسائل ربما تكون مخالفة لظواهر نصوص الشريعة التى تعتمد فى الاعتقاد، فهذا الحال ربما يوقع هؤلاء المقلدين فى الخروج عن الدين — والعياذ بالله تعالى وهم لا يشعرون، والذى يوقع أولئك المقلدين فى تقليد فلاسفة هذا الزمان فى تلك المسائل هو أنهم نظروا لهم أدلة فى بعض مسائل فنونهم يقينية قطعية كأدلتهم فى المسائل الحسابية والهندسية وبعض التجريبيات الطبيعية المحسوسة فاغتروا بهم، وأوقعهم الوهم فى اعتقاد أن كل مايقوله أولئك الفلاسفة صواب يقينى الثبوت وأنهم لا يعتمدون فى أدلتهم فى جميع فنونهم إلا على اليقين ولم يدر أنه يوجد فرق بين أدلة المسائل الحسابية وما ذكر معها وبين أدلة كثير

من المسائل الفلكية مثلا بأن تلك يقينية وهذه قد يوجد بينها كثير من الظنون والتخمينات وقياس الغائب على الشاهد الذى قد يكون فى نفس الأمر قياسا فاسدا ، وان قيل إن بعض تلك المسائل التى يقلد بها المقلدون فلاسفة هذا الزمان تكون مجمعا عليها عندهم ، قلنا إنا معشر المسلمين لسنا مأمورين فى شريعتنا بتقليد اجماع الا اجماع هذه الامة المحمدية، أى اجماع علمائها الذين هم أهل الاجتهاد وفهم نصوص الشريعة حيث شهد لهم الرسول عليه السلام بأنهم لا يجتمعون على ضلالة على أن اجماع هؤلاء الفلاسفة على بعض تلك المسائل قد يكون مبنيا على دليل ظني فلا يفيد عصمة اجماعهم من الخطأ لا سيما فى المسائل التى تكون بعيدة الموضوعات عنهم كما فى المسائل الفلكية والجوية ؛ فان معظم أدلتهم فيها الحدث والتخمين وقياس الغائب على الشاهد كما يعلم من الاطلاع على كتبهم التى تقرر فيها تلك المسائل ، ولنا عبرة فيما حدث على مذهب المتقدمين من الفلكيين في وجود الأفلاك وما لها من الأحكام ؛ فانه قد مرت عليه المئات من السنين وهم مجمعون عليه ، وكم ألفوا فيه من الكتب ، وكم دونوا من الأصول والقواعد ، وكم صوروا صور الأفلاك وذكروا لها من الأحكام الطويلة العريضة فجاء المتأخرون وأبطلوه من أصله وصار بينهم يعد خرافة من خرافات البشر ، اذا تقرر هذا فاعلم أنه كان من حق أولئك المقلدين

لفلاسفة هـذا الزمان فى بعض المسائل المخالفة لظواهر نصوص الشريعة الاسلامية أن يبحثوا عن أدلتهم فيها ويطلعوا عليها،فان كانت ظنية فلا يلقون لها بالا ، ولا يتركون اعتقاد ظواهر نصوص شريعتهم القطعية الثبوت عن رسولهم الصادق المعصوم ، وان كانت أدلة يقينية ولم يبق معها ريب فى دلالتها على ما يناقض ظهور نصوص الشريعة فحينئذ يسوغ لهم تأويل تلك الظواهر والتوفيق بينها وبين تلك المسائل كما هو القاعدة التى مر تقريرها عند أهل السنة والجماعة ، وان لم يكن أولئك المقلدون أهلا للتأويل فليرجعوا فيه إلا علماء الدين الأعلام فيفهمونهم التأويل اللازم الجارى على قواعد الشريعة وأصول اللغة العربية التي جاءت بها النصوص الشرعية ويأمنون على ايمانهم الذى به سعادة الدارين والله الموفق

«المقدمة الثالثة» : ان الشريعة المحمدية،بل وسائر الشرائع انما يقصد منها بيان ما يرشد الخلق إلى معرفة الله تعالى باعتقاد وجوده واتصافه بصفات الكمال ، وإلى كيفية عبادته وأداء شكره ، وإلى الاحكام التى توصلهم إلا انتظام المعاش وحسن المعاد ، وأما تعريفهم بمباحث العلوم الكونية من كيفية خلق العالم وما هى النواميس القائمة فى السماويات أو فى الأرضيات وأمثال ذلك فليس شىء من نحو هـذا من مقاصد الشرائع بل هذه المباحث هى معارف تتوصل الناس اليها بعقولهم فربما ينتفعون بها فى دنياهم وربما يكون حظهم فيها مجرد الاطلاع ، والشرائع

لا تلتفت اليها أولا وبالذات ولا تعتني بتفاصيلها : نعم قد تذكر شيئاً منها مجملا على قدر ما يكون له دخل في مقاصدها الأصلية ، فتذكر مثلا خلق السموات والارضين وابرازها من العدم واختلاف أنواع المخلوقات في التنوعات وكيفية تدبير الأكوان، واعطاء كل منها نظامه على سبيل الاجمال، لأجل أن يكون ذلك دليلا عقليا للناس على وجود إله العالم وعلى اتصافه بالعلم ، والقدرة ، والحكمة إلى غير ذلك ، وقد تفصل بعض تلك المباحث لداع يدعو إلى ذلك يكون مرجعه إلى مقاصدها ، اذا تقرر هذا فنقول : —

الفصل الأول

في رد الشبه عن النصوص الشرعية الواردة في السماويات والأرضيات ، أو التوفيق بينها وبين ما قام عليه الدليل العقلي القاطع مناقضا لظواهرها

اعلم أنه قد ورد في نصوص الشريعة الاسلامية — التي تعتمد في الاعتقاد : أن الله تعالى خلق سبع سموات ، وخلق جسما كبيراً فوق تلك السموات يسمى كرسيا ، وجسما آخر فوقه يسمى العرش ، وأن بيننا وبين تلك الأجسام مسافات عظيمة — كما أن بينها مسافات ، وأنه تعالى خلق جسما كبيرا يسمى لوحا ، وجسما آخر يسمى قلما ،

لإثبات ما يكون فى العالم وتسطيره ، لا عن حاجة إلى جميع ذلك ، بل لحكم هو يعلمها سبحانه ، وأنه خلق دارا تسمى الجنة أعدها لنعيم الطائعين ودارا أخرى تسمى جهنم أعدها لعذاب غير الطائعين ، بعد خراب عالم الأرض والسموات ، وبعث الناس بعد الموت كما تقدم ، وأنه خلق الكواكب وجعلها زينة السماء الدنيا ، أى السماء القربى من الارض فقال بعض علماء الاسلام: هى مركوزة فى نفس السماء ، وهو قول جمهور المفسرين ، وقال بعضهم: هى دون السماء بينها وبين الأرض ، وهو منقول عن مكى ، وعن وهب ، ونقله فى مختصر الهيئة السنية للقرمانى عن كثير من المفسرين وغيرهم ، ونقل الشيخ مرعى الحنبلى فى « عجائب المخلوقات » حديثا آحاديا يدل عليه ، وكذلك نقل هذا الحديث أبو جعفر محمد بن عبد الله الكسائى فى كتاب « الملكوت » ونقل الرازى أثرا عن كعب فى تفسير سورة « القدر » صريحا فى أن الشمس دون السماء ، وعلى هذا القول فيكون معنى كونها زينة السماء الدنيا أنها زينة لها بحسب مرأى الناظرين إليها — وإن كانت تحتها وهذا لا يلزم منه أن تكون مركوزة فى نفس السماء ، ولعل أصحاب هذا القول يتأولون قوله تعالى : « وجعل القمر فيهن نورا » أى فى السموات نظير هذا التأويل ، وورد أيضا من نصوص الشريعة ما يفيد أن كلا من الكواكب يسبح فى فلك ، فقال بعض علماء الاسلام : ان الفلك هو جسم يحمل الكواكب ، وقال بعضهم : هو مداره ، أى الحيز

الذى تسير فيه من الفراغ ، وهذا قول الضحاك — كما فى الرازى ، والذى عليه جمهور علماء الاسلام ، أن السماء مرئية لنا — كما يستفاد من ظاهر بعض النصوص ، وقال بعضهم ، إنها غير مرئية ، وإنما المرئى الهواء ، نقله فى «عجائب المخلوق» عن القاضى أبى بكر بن العربى ، ولا بد أنه يؤول النص الذى يدل ظاهره على أنها ترى بتأويل مناسب ، وورد أيضا فى النصوص الشرعية أن الله تعالى خالق سبع أرضين ، فقال بعض العلماء : ان المراد بها أقاليم أرضنا السبعة ، وقال بعضهم : إن المراد طبقات الأرض المتراكبة على بعضها ، وروى فى بعض الآثار عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن كل أرض منها كأرضنا وفيها عالم كعالمنا ، وورد من النصوص ماظاهره أن الأرض بسيطة كما فى قوله تعالى : « والأرض بعد ذلك دحاها » وهو مذهب جمهور علماء الاسلام ، وقال بعضهم : انها كروية ، وممن قال بذلك الامام الرازى وتأولوا قوله تعالى : «دحاها» بأنه جعلها صالحة لسكنى الحيوانات بعد أن لم تكن كذلك ، وظاهر بعض النصوص يفيد أن الشمس هى التى تسير كما قال تعالى : « والشمس تجرى لمستقر لها » وقوله تعالى : « وجدها تطلع » و « وجدها تغرب » وكما يفهم من استعمال أهل الشرع فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم وبعده من قولهم : طلعت الشمس ، وغربت الشمس ، وظاهر ذلك أن الأرض ساكنة وان لم يرد تصريح بحركتها ولا بسكونها ، فيجب علينا معشر المسلمين الايمان بما تعطيه

ظواهر هذه النصوص ، والأخذ بقول جمهور العلماء فيما فهموه منها ، وتأويل بعض العلماء المخالف للجمهور وان كان الأخذ به لايضر فى الدين بفساد الايمان؛ لأنه جار على تأويل مناسب ولكن حيث لم يظهر لنا داع قوى يدعو لذلك التأويل فالأخذبقول الجمهور واعتمادنا على ما فهموه من النصوص يكون هو الموافق لقواعد الدين الاسلامى

فان قيل : ان المتأخرين من الفلاسفة الفلكيين يدعون أنهم بأرصادهم وبوسائط الآلات التى اخترعوها للنظر فى أحوال السماويات قد ثبت عندهم أنه لا يوجد فى الكون الا الكواكب ، وان أرضنا التى نحن عليها هى كرة ومعدودة من جملة الكواكب ، وأن الشمس واقعة فى الوسط تدور فقط على محورها دورة بطيئة ، والارض وجميع الكواكب تدور حولها بواسطة ناموس يسمى ناموس الجاذبية ،وأن لأرضنا كما لغيرها من الكواكب دورتين دورة سنوية حول الشمس منها تتولد الفصول الأربعة ، ودورة يومية على محورها ،ومنها تتولد أوقات الليل والنهار بواسطة مقابلة نور الشمس تارة والاستتار عنه أخرى ، وأن الذى نراه من الزرقة انما هو لون الجو وليس هو سماء إذ لا وجود لسموات عندهم ، ولا يقولون بوجود أرضين غير هذه الأرض ، وشاعت أقوالهم هذه وأخذ بها الكثير من عامة الاسلام من غير التفات الى التوفيق بينها وبين النصوص الشرعية التى تقدمت

فكيف يكون التوفيق وما الحكم فى ذلك ؟ قلنا : قدتقدملك أنه يجب علينا اعتقاد ظواهر النصوص الشرعية ، واعتماد ما عليه الجمهور فى فهم معانيها ، ولا يجوز لنا تأويل النصوص وصرفها عن ظواهرها الا لداع قوى،وهو قيام الدليل العقلى القاطع المناقض لظواهر النصوص ، ولا يجوز لنا تقليد علماء الاسلام فى أمر الاعتقاد من غير أن يظهروا لنا دليلا عقليا أو شرعيا فكيف بمن سواهم ، وعلى هـذا فمن بلغه منا معشر المسلمين أقوال أولئك الفلكيين المتأخرين من غير دليل عقلى قاطع يثبت كل مسئلة من المسائل التي يدعونها فيماتقدم ، أو بدليل ظنى لا ينتج اليقين فعليه ألا يلتفت لـكلامهم ، ولايتحول عن اعتقاد ما تعطيه ظواهر النصوص الشرعيةالتى تقدم نقلها ، ولا يهمل اعتماده على ما فهمه جمهور علماء الاسلام منها ، هـذا هو الواجب عليه ، والحافظ لايمانه من الاختلال : وأما اذا بلغ أحدا منا كلامهم المتقدم مع اقامتهم له الدليل العقلى القاطع الدال على كل مسألة من المسائل المذكورة من مسائلهم ، ويكون ذلك مناقضا لظواهر النصوص التى تقدمت بخصوص تلك المسائل فعليه أن يرجع حينئذ إلى القاعدة الكلية التى تقدم لنا تقريرها ، وهى تأويل تلك النصوص وصرفها عن ظواهرها الى احتمال معان تناسب ما قامت عليه أدلة أولئك القوم العقلية القطعية اليقينية ، ولا ضرر عليه في ذلك بعد أن يتحقق صحة أدلتهم وافادتها اليقين الذى لا شبهة فيه ، اذا تقرر هـذا فنقول

فى رد شبه هذا المقام ، والتوفيق بين نصوصه وبين ما يفرض تحققه من الأدلة اليقينية المناقضة لتلك النصوص

أما قول أولئك الفلكيين ان الكواكب قائمة فى الفضاء بناموس الجاذبية وليست مركوزة بسماء فهو أمر جائز عقلا داخل تحت تصرف قدرة الله تعالى ويكون ذلك الناموس من جملة الأسباب العادية التى وضعها الله تعالى فى الأكوان، فاذا قام لنا الدليل العقلى القاطع على قيام تلك الكواكب فى الفضاء كما يقولون : نتأول النص الذى ظاهره أن الكواكب مركوزة فى السماء وهو قوله تعالى : « وزينا السماء الدنيا بمصابيح » بأنه من المحتمل أن يكون مراده تعالى بكونها زينة أنها زينتها بحسب مرأى الرائين وان كانت تحتها — كما قال بذلك جملة من علماء الاسلام ، وتقدم نقله عن مكى ، ووهب ؛ وكثير من المفسرين ، وكعب ، ونأخذ بقول من قال من علمائنا : ان المراد بأفلاك الكواكب هو مداراتها من الفضاء الذى تدور فيها لا أنها أجسام تحملها، ولنكون قد جرينا على قاعدة التأويل عند قيام الدليل القطعى المعارض مع الموافقة لجملة من العلماء على أسهل وجه

وأما قول أولئك الفلكيين ان المرئى لنا من الزرقة هو لون الجو ، فغاية ماعندهم من الدليل أن نظاراتهم المجسمة لم تكشف لهم جسما غير الكواكب قائمة فى الفضاء ، ولذلك أنكروا وجود السماء ، ونقول : ما المانع أن السماء لشدة بعدها عن الأرض بمسافات شاسعة

ماعادت النظارات صالحة لأن تحقق جسميتها لهم ، ويمكن أن يكون لونها هو الذى يخفى حقيقة جسميتها ، وهذا هو الذى أوهمهم عدم وجود جسم فى الفضاء غير الكواكب ، على أن بعض علماء الاسلام وهو القاضى أبو بكر بن العربى قد قال : بأن السماء غير مرئية ، وتأول النص الذى ظاهره أنها ترى — كما تقدم ، ولا يلزم من عدم رؤيتها عدم وجودها كما هو القاعدة المسلمة ، من أنه لايلزم من عدم الوجدان عدم الوجود ، والله تعالى أعلم

وأما قول هؤلاء الفلكيين : ان الأرض كرة فبعد اقامتهم لنا الدليل العقلى القاطع الدال على كرويتها لا مانع لنا من القول به ، ويمكن تأويل النص الذى ظاهره أنها مبسوطة كقوله تعالى : « والارض بعد ذلك دحاها » بأن جعل سطحها صالحا للسكنى بعد أن لم يكن كذلك مع أنها فى نفسها كرة كما قال به الامام الرازى وغيره ، ولا بد أنه قام الدليل القاطع لدى من قال من علماء الاسلام بكرويتها ، والله تعالى أعلم

وأما قولهم : ان الشمس لا تسير حول الأرض ، وانما لها دورة بطيئة على محورها والارض هى التى تدور دورتين ، احداهما سنوية حول الشمس تتولد منها الفصول الأربعة ، والأخرى يومية على محورها تتولد منها أوقات الليل والنهار ، فنقول : هذا من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى ، فاذا أقاموا

لنا الدليل العقلى القاطع على ذلك فلا مانع من القول به ، ونتأول ماظاهره من النصوص الشرعية أن الشمس تسير وهو قوله تعالى : « والشمس تجرى لمستقر لها » بأن المراد من جريها هو دورانها على محورها ، وانها تجرى إلى استقرار يكون لها بعد ذلك عند ما يخرب عالم السموات والأرض بمجىء يوم القيامة ، فانها حينئذ تقف عن تلك الدورة ، وأن سبحها فى فلكها عبارة عن دورانها على محورها فى الحيز الذى هو فلكها — كما تقدم أن الفلك هو الحيز فى تفسير بعض علمائنا ، وأما الأرض فانه وان لم يرد تصريح فى النصوص الشرعية بحركتها أو بسكونها ولكن نسبة الجرى والسبح فى الفلك الى الشمس ، وظواهر استعمالات الشرع ، وأهل العصور الاسلامية تدل بالظاهر على أنها ساكنة ، والحركة اليومية التى نراها انما هى للشمس والكواكب لا للأرض ، فاذا أقام لنا هؤلاء الفلكيون الدليل العقلى القاطع على أن تلك الحركة اليومية للأرض تدور على محورها يمكننا أن نصرف النص الذى ظاهره سير الشمس على ظاهره — كما تقدم كما يمكننا أن نقول : ان استعمالات الشرع فيما يدل ظاهره على أن الدورة اليومية للشمس لا للأرض ، وجرى على ذلك استعمالات العصور الاسلامية ، انما كان ذلك جريا على الظاهر المشاهد للعامة ، ومجاراة لاستعمال الأمم وما ألفوه فى نظرهم ، وتكون هذه المسألة من جملة المسائل التى لم يؤذن للرسل بشرحها للعموم ، لأن كشف

حقيقتها ليس من مقاصد الشرائع لما تقدم أن مقاصد الشرائع انما هو بيان التوحيد ، والعبادات ، ونظام المعاش ، وأيضا بيان تلك المسئلة ربما قد يعجز عن فهمه كثير من العامة ، بل ربما يكون فيه للعامة اضطراب واختلال لاسيما الضعفاء منهم الذين يجدون ذلك مخالفا لمشاهدتهم ، ولسنا نقول : ان فهم هذه المسئلة يصعب على أجلاء الصحابة رضي الله تعالى عنهم الذين حازوا من المعارف النبوية ما يؤهلهم لفهم أعظم المسائل وأدقها ، بل نقول : ان فهمها يصعب على العامة لاسيما أهل البوادى ، ولينظر لو قيل للعرب الجاهلية : ان الأرض هى التى تدور والعالم على ظهرها ولايسقطون عنها ولا ينفصل عنها ماء البحر ونحو ذلك ، وهم يشاهدون بأبصارهم أن الدائر حول الارض انما هو الشمس والكواكب ماذا يكون حالهم حينئذ وما كان يظهر فيهم من المخالفة والامتناع عن التصديق لهذا القول ؟ وانظر الى ما استبعدوه وأنكروه من أمر البعث وأمثال ذلك ، ولكن الشرائع فى غنية عن بيان مثل مسألة الأرض ، إذ ليست من مقاصدها ، وأما بيان البعث فهو من مقاصدها لما فيه من الترهيب والترغيب المصلحين للأمم فلذلك لم تترك بيانه وان صعب فهمه على كثير ، بل ذكرته وأقامت الدلائل عليه ، والملخص أن الشرع جرى فى استعماله على ظاهر الحال . ويسمى ذلك فى اصطلاح اللغة تجوزا ، ولم يظهر الحقيقة للشعب لما قدمنا ، وهكذا نرى الآن من يعتقدون دورة

الأرض يجرون فى استعمالاتهم على ماهو ظاهر الحال ويقولون : طلعت الشمس وغربت ، ولم نسمع أحدا منهم يقول : قابلنا الشمس أو استترنا عنها ، وكل هذا جائز في الاستعمالات اللغوية ، لقيام الصورة الظاهرية بالمشاهدة

وليعلم أن جميع ماقررناه هنا — وان كان سائغا لنا ولا ضير فيه ، إلا أنا لا نقول به الا بعد إقامة الدليل العقلى القاطع على صحة قول هؤلاء الفلكيين ، والا فنحن متمسكون بالظواهر ، لانفارقها ولا نلتفت إلى أقوالهم وإجماعهم ، إذ ليسوا معصومين من الغلط كما لم يعصم أسلافهم ، والله تعالى أعلم

وأما إنكارهؤلاء الفلكيين لوجود السموات السبع ، والعرش ، والكرسى ، والقلم ، واللوح ، والجنة : والنار : فهذا ليس لديهم دليل عليه ، إلا أنهم ما وجدوا هذه الأشياء ولا رأوها بنظاراتهم المجسمة ، ونقول : ان عدم الوجدان لايستلزم عدم الوجود في نفس الأمر ، وهذا مسلم عند جميع العقلاء فانكارهم لا يعبأ به ، ثم اننا نحن وإياهم متفقون على وجود الفضاء الذى لا يتناهى فما المانع من أن الله تعالى خلق تلك الأجسام وراء عالم الكواكب بعد تسليم أن الكواكب قائمة فى الفضاء ، وتلك الأجسام تكون بعيدة عنا بمسافات شاسعة لا تدركها نظاراتهم ، أو أنها وإن ادركتها السماء الدنيا التى هى أول تلك الأجسام فربما تكون تلك السماء ملونة بلون يوجب عدم تحقق

جسميتها بالنظارات ، فهم لم يروا بنظاراتهم ولم يتحققوا إلا جسمية الكواكب ، فانكروا تلك الأجسام وهي موجودة في الفضاء الواسع الشاسع ، وحيث إن ذلك جائز محتمل داخل تحت تصرف قدرة الله تعالى بأن يخلق سبحانه تلك الأجسام ويقيمها فى ذلك الفضاء — كما أقام الكواكب ، وقد أخبر بوجودها الصادق عليه السلام ، فنحن نؤمن بوجودها وليس لنا تأويل نصوصها الواردة فيها ، إذ لا داعى لذلك لعدم قيام دليل قاطع يناقض وجودها ، ومجرد انكار أولئك القوم ليس دليلا ظنيا فضلا عن أن يكون دليلا يقينيا ، والله تعالى أعلم

وأما انكارهم كون الأرضين سبعا فهذا أيضا لا دليل لهم عليه ، فغاية ما عندهم أن يقولوا إننا لم ننظر غير الكواكب وهذه الأرض ، ونحن نقول : أولا انه لم يتفق جميع علماء الأسلام الذين يعتمد على فهمهم للنصوص الشرعية على حمل النص الذى يدل على وجود سبع أرضين على ظاهره : من وجود سبع أرضين منفصلة مستقلة كل واحدة منها ، بل بعضهم قال : ان المراد بها أقاليم أرضنا السبعة ، وبعضهم قال : ان المراد بها طبقات أرضنا ، وثانيا إذا جرينا على ما نقل عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما من أن كل واحدة منها منفصلة مستقلة مثل أرضنا ، وان فى كل منها عالما كعالمنا فهذا شيء من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى الذى أوجد هذه الكواكب العظيمة التى يوجد بينها ما يزيد فى العظم عن أرضنا بمئات الالوف ، فما المانع أن يكون الله تعالى قد

خلق ست أرضين غير أرضنا ، وتكون تلك الأرضون قائمة في الفضاء كما يقول أولئك الفلكيون في أرضنا وعدم رؤيتهم لها بنظاراتهم يمكن أن يكون بسبب أنها مظلمة السطح لا ترى كما أن القمر لا يرى عند المحاق ، ويمكن أنهم يرونها بين الكواكب ويحسبونها من جملتها ، ولا غرابة في ذلك على أصولهم فكثير منهم من يزعم أن في الكواكب سكانا ، ويستدلون على ذلك بأدلة ظنية تعلم من الاطلاع على كتبهم فحيث قد تبين أن وجود سبع أرضين لا مانع منه ، وقد أخبر به الصادق ، فنؤمن بوجودها ولا نلتفت إلى كلام هؤلاء الفلكيين الذين لا سند لهم في انكارها ، ويسوغ لنا تفسيرها بكل من التفاسير المتقدمة حتى على قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما مع توجيهه بما قدمناه ، والله تعالى أعلم

وقد بقي نص في القرآن الشريف ترد على ظاهره الشبهة على رأي الفلكيين المتقدمين والمتأخرين ، وهو قوله تعالى في قصة ذي القرنين « حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة » فإن ظاهره أن الشمس تغرب في عين من عيون الأرض ، وكان يجب علينا الإيمان بمعناه الظاهر ، لكن قد قام الدليل العقلي القاطع من لدن المتقدمين على أن الشمس أكبر من الارض بكثير ودخول الجسم الكبير في الصغير مع البقاء على مقدارهما من المحال ، وقد قام الدليل القاطع أيضا على أن الشمس لا تغرب في نفس الأرض

وعلى هذا فقد صرف علماء الاسلام هذا النص عن ظاهره إلى غير ما يتبادر منه ، فقالوا : يحتمل — والله أعلم بمراده — أنه تعالى أراد أن ذا القرنين لما بلغ ذلك المكان من بلاد المغرب وجد الشمس بحسب رؤية الرائى تغرب فى عين حمئة ، لأن الناظر إلى الشمس فى سواحل البلاد الغربية يتخيل أن الشمس تغرب فى بحرها الغربى المحيط بها ، وذلك البحر كثير الحمأة السوداء والظلمة ، وذو سخونة وليس مراده انها تغرب فى عين بالفعل ، ولذلك قال : « وجدها تغرب » ولم يقل فاذا هى تغرب مثلا من العبارات التى تفيد حكاية واقع الأمر نصا ، وهكذا يقول الرجل منا : انى من المكان الفلانى وجدت الشمس تغرب فى البحر ، أو خلف الجبل ، أو فى الوادى والحال أن اعتقاده أنها لم تغرب فى واحد منها وانما حكى صورة رؤينه ، يؤخذ هذا التأويل من الرازى ، والجلالين ، والكواشى كما نقله فى « عجائب المخلوقات » ، قال الرازى : وما قاله أهل الاخبار من أن الشمس حقيقة تغرب فى العين كلام على خلاف اليقين ، وكلام الله تعالى مبرأ عن هذه التهمة ، فلم يبق إلا أن يصار إلى التأويل . والله تعالى أعلم

الفصل الثانى

فى رد الشبه عن النصوص الواردة
فى شؤون الملائكة والجن

قد تقدم لنا في الباب الثانى وجوب الايمان بالملائكة ، والآن نقول: إنه قد وردت نصوص الشريعة متواترة أومشهورة وأحاديث آحادية لكن لكثرتها ، وتعدد طرقها بلغ ما يستفاد منها درجة التواتر يدل جميع ذلك على أن الله تعالى خلق أجساما لطيفة نورانية تسمى ملائكة ، قادرة على الشكل بأى شكل أرادت ، وأنها تقطع المسافات التى بين السموات والأرض فى مدة قصيرة جدا ، وأنها تمر أمامنا ولا نراها ، وأنها تفعل افعالا عظيمة تعجز عنها قوى البشر ، وانها موكلة بحوادث هذا الكون : كنزول الأمطار ، وتدبير عالم الحيوان والنبات ، وغير ذلك ، وانه تعالى خلق أجساما أخرى تسمى جنا تشابه الملائكة المذكورين فى بعض خواصها : من نحو الاقتدار على التشكل ، والاحتجاب عن الابصار ، والاقتدار على أعمال عظيمة ، ولكنها تخالفهم بأنها ليست نورانية مثلهم ، وأنها مكلفة كالبشر ، فمنهم المؤمن الطائع ، والعاصى ، والكافر ، وقد وردت شبه على وجود الملائكة والجن وشؤونهم : من نحو الاقتدار على التشكل ، والاعمال الشاقة ، مع أنهم أجسام لطيفة وغيرذلك من بعض الفلاسفة المتقدمين وتبعهم المتأخرون ، ونقول فى بيان رد تلك الشبهة ، واظهار أنها أوهام

لاتقوم لدى الإيمان بعظمة قدرة الله تعالى على إيجاد الملائكة والجن في تلك الشؤون والأحوال

اعلم أنه من الممكن الجائز عقلا أن الله تعالى عظيم القدرة ، واسع العلم ، قد خلق الملائكة من مادة لطيفة كمادة الهواء أوالأثير الذى يقول به المتأخرون من أنه مادة لطيفة جدا مالئة الكون لا ترى ، وقد كونهم سبحانه من تلك المادة ، وجمع أجزاءهم بكيفية صالحة لتلك الخواص والشؤون التى ذكرناها لهم كما كون سبحانه الحيوان من العناصر الجمادية بكيفية أكسبته قبول الحياة ، وجميع قواها من الادراك والحركة وغير ذلك بعد أن لم يكن للعناصر شيء من ذلك ، ويحتمل حينئذ أن عدم رؤيتنا إياهم لشفافتهم ولطافتهم كالهواء والأثير ، على أن الأمر ظاهر جدا على ما ثبت لدينا معشر المسلمين من أن الرؤية بمحض خلق الله تعالى فمن الممكن أن الله تعالى لا يخلق رؤيتنا لهم عند مرورهم أمامنا ، ثم ان اقتدارهم على التشكل مع أنه جائز عقلا داخل تحت تصرف قدرة الله تعالى يمكن توجيهه وبيان كيفيته مما يقبله العقل بأن كان أن الله تعالى كون تلك الأجسام على كيفية يقدرون بها على تناول كمية من الهواء أو الأثير أو نظير ذلك وتكثيفها وتكوينها على الصورة التى يريدونها ثم يلبسونها كما يلبس الثياب فيظهرون للابصار بتلك الصور ، وفى الأعمال الكيماوية

التى أقدر الله تعالى البشر عليها من تحويلات الأجسام إلى بعضها كتحويل الكثيف لطيفا ، واللطيف كثيفا ما يقرب فهم ما قررناه إلى المعقول ، وحيث ان تشكل تلك الأجسام كيفما كان هو مستند إلى عظمة قدرة الله تعالى الذى تدهش أعماله الأفكار فيما أعطاه للحيوان والنبات من الخواص ، فلا غرابة فى ذلك ، وكل مؤمن بذلك الاله ، وبعظيم قدرته ، وواسع علمه لا يستبعد حصول ما ذكر للملائكة

وأما انهم يعملون أعمالا عظيمة تعجز عنها قوى البشر مع أنهم أجسام لطيفة فبعد النظر إلى أعمال الرياح التى تقلع الأشجار العظيمة ، وتهدم الأبنية الجسيمة ، وأعمال القوة الكهربائية التى تجر الاثقال التى يعجز عنها ألوف الرجال لاتجد فى نسبة تلك الأعمال للملائكة مع أنهم أجسام لطيفة شيئا من الغرابة ، لا سيما وان الذى يقدرهم على تلك الاعمال هو الله تعالى الذى لا يعد ذلك بالنسبة إلى عظيم قدرته شيئا صعبا ، وإذا نظرنا إلى أن بعض الناس يكسر بقوة ذراعه الحديد ، وما هى قوة ذراعه إلا عمل أعصابه مع عضلاته التى تنتهى أخيرا إلى مخه اللطيف النحيف الذى هو مبدأ حركة الاعضاء ، على مايقوله أولئك الفلاسفة ، والمخ للطافته لا يتحمل أذى مصادمة من جسم غريب ، بل صعود نقطة دم زائدة على القدر اللازم له قد تفسده وتعدم صاحبه الحياة ، ظهر لنا أن الله تعالى قادر

على اعطاء اللطيف قوة لا توجد فى الصلب الكثيف : سبحانه من قادر عليم

واما أن الملائكة يقطعون المسافات الشاسعة بين الاجسام السماوية وبينها وبين الأرض بمدة قصيرة جدا فنقول : لا مانع منه عقلا لأن سرعة الحركة ليست محصورة بحد يسير فلينظر إلى ماقاله أولئك الفلاسفة : من أن الجسم الساقط إلى الأرض فى أول ثانية من سقوطه تكون سرعته ستة عشر قدما ، وإذا كان سقوطه الى الشمس تكون سرعته فى تلك الثانية أربعمائة وخمسين قدما ، ثم ان الجسم يسقط فى أى عدد كان من الثوانى بعد الثانية الأولى ما يساوى مقدار ما يسقط فى الثانية الأولى مضروبا فى مربع ذلك العدد من الثوانى ، فبالتأمل فى هذا الناموس يعلم ما تبلغه سرعة حركة الأجسام من العظمة التي يحتار فيها الفكر ، وكذلك عندهم فى علم الهيئة أن نجم المشترى يجرى ثلاثين ألف ميل فى الساعة ، أى أسرع من كلة مدفع ثمانين مرة فيجرى تسعة أميال كلما تنفس الانسان ، وسرعة أجزائه الاستوائية فى دورانه على محوره أربعمائة وسبعة وستون ميلا كل دقيقة ، ففى الساعة يقطع كل جزء من تلك الاجزاء سبعة وعشرين ألفا وتسعمائة وعشرين مرة ، والمشترى أكبر من أرضنا بالف وأربعمائة مرة على ما يقوله الفلكيون منهم ، فالذى جعل هذا الجسم الكثيف العظيم وكل جزء من أجزائه الاستوائية تقطع

تلك المسافة الشاسعة في تلك المدة الجزئية لا يبعد على قدرته أن يجعل الملك يقطع تلك المسافات بين السموات والارض فى مدة قليلة جدا وان كانت هذه المسافات أكثر بكثير من المسافات التى يقطعها المشترى وأجزاؤه ، لكن النظر الصحيح فى سير ذلك الكوكب يقنع العقل بان قدرة الله الذى سيره ذاك السير صالحة لأعظم ما يكون من جنس هذا العمل لا سيما وناموس الأجسام الساقطة قد بين عظم سرعة حركة الاجسام ، وان قيل : ان سير المشترى هو بواسطة الجاذبية على ما هو مفصل فى كتب أولئك القوم ، وكذلك سرعة الاجسام الساقطة . قلنا . وماهي تلك الجاذبية التى ينسبون اليها أعمالا عظيمة فى الكائنات ؟ وهم يعجزون عن الافصاح عن حقيقتها ، وعما هو الموجب لقيامها في الاجسام وغاية ما يكون منهم أنهم يقولون بها لتعليل الحوادث التى حيرت عقولهم : من نحو النظام الشمسى أى دوران الكواكب حول الشمس وغيره ، وبعد تسليم ثبوتها نقول من الذى أوجدها وجعلها خاصة الاجسام وأنشأ عنها تلك الحوادث العظيمة فى الكائنات ؟ أغير الاله الذى أبدع الخلق من العدم ، ووضعه على أتم نظام ، وأسمى حكم ؟ فاذا كان ذلك الاله قادرا على ايجاده مثل هذه الجاذبية ، واحداث حركات الأجسام السريعة عنها فلا يعجز أن يجعل الملك يقطع تلك المسافات فى مدة وجيزة : اما بخاصة وضعها فيه ، وأما بغير خاصة فالكل جائز عقلا ، وقدرته صالحة

لكلا الأمرين، وليعلم أن جميع ماقررناه فى حق الملائكة يقال مثله فى شأن الجن : من القدرة على التشكل ، والأعمال العظيمة ، وقطعهم المسافات الطويلة فى برهة قليلة ، وعدم رؤيتنا لهم ، والاستدلال واحد لا يخفى على الفطن الذكى ، والله تعالى أعلم ، نقول : ومن هذا المقام تبين لك اندفاع الشبهة التى ترد على الاسراء والمعراج اللذين حصلا لسيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، والشبهة التى ترد على انتقال عرش بلقيس من بلاد اليمن إلى مجلس سليمان عليه السلام فى لمحة طرف

أما الاسراء والمعراج فقد ورد فى القرآن الشريف أن الله تعالى أسرى بسيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فى ليلة واحدة من المسجد الحرام فى مكة الى المسجد الاقصى فى القدس ، وورد فى الاحاديث الصحيحة التي بلغت بكثرتها درجة القطع بثبوتها أن الله تعالى أصعده في تلك الليلة الى السموات العلى ، ثم أعاده الى مكة فى نفس تلك الليلة قبل أن يطلع الفجر ، فيجب علينا الايمان بذلك حتى ان كثيرا من العلماء يذكرون الاسراء والمعراج فى جملة العقائد التي يجب الايمان بها ، وانما أخرنا ذكرها الى هنا لبيان دفع الشبهة عنهما فى مناسبة هذا المقام ، فنقول : حيث قد ظهر هنا أن سرعة الحركة للاجسام مهما بلغت القدر العظيم فهى من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى فما المانع ان الله تعالى ينقل ذات سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فى ليلة واحدة من حرم مكة الى حرم القدس ، ثم الى السموات العلى ، ثم يعيده فى تلك الليلة الى مكة ، فمن يؤمن بوجود الله تعالى ، ويتبصر

فى أعماله فى هذه الاكوان ، ويعتقد أن سيدنا محمدا رسوله، وقد أخبرنا بأنه قد حصل له ذلك الانتقال السريع فى تلك المسافات ، وهو صادق معصوم عن الكذب : لايتوقف بتصديق قصة الاسراء والمعراج ، ويؤمن بذلك من دون تردد ، ولايجده الا من الامور الجائزة الداخلة تحت تصرف قدرة ذلك الاله العظيم ، وأما من لم يكن مؤمنا بوجود الاله سبحانه وعظيم قدرته ، ولم يعتقد برسالة رسوله فهذا الصواب فى حقه أولا أن يرشد الى الايمان بالله تعالى ورسوله بواضح البرهان ، وبعد ذلك يسهل عليه تصديق نصوص الأحاديث والقرآن ، والله الموفق

وأما قصة مجىء عرش بلقيس من بلاد اليمن الى مجلس سليمان فى لمحة طرف فقد وردت هذه القصة فى القرآن الكريم ، وأنها جرت على يد من عنده علم من الكتاب ، فبعض المفسرين قال : انه آصف ابن برخيا وزير سيدنا سليمان عليه السلام ، فيكون مجىء ذلك العرش كرامة أظهرها الله تعالى على يده ، لأنه من أولياء الله تعالى ، وبعضهم قال : انه نفس سليمان عليه السلام فيكون ذلك معجزة أظهرها الله تعالى على يديه اذهى أمر خارق للعادة ، ومن تأمل فى هذا المقام وظهر لديه أن سرعة حركة الأجسام مهما بلغت فهى من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى : فلا يصعب عليه الايمان بهذه القصة ، والله على كل شىء قدير

الفصل الثالث

فى رد الشبه عن بعض النصوص الشرعية الواردة فى الأمور الجوية كالمطر ونحوه

اعلم أن الآيات الواردة فى القرآن الشريف في شأن المطر هي على قسمين ، منها ماظاهره أن المطر ينزل من السماء ، ومنها ماظاهره أنه ينزل من السحاب ، ثم ان السماء تطلق فى اللغة العربية التى جاءت هذه الشريعة الاسلامية بها على عدة معان كما فى قواميس تلك اللغة ، منها السماء التى هى مسكن الملائكة ، ومنها سقف كل شىء وكل بيت ، ومنها كل ماعلا الشىء فهو سماؤه ، ومنها السحاب ، ومنها المطر ، وبناء على ماتقدم من وجود اعتمادنا على المعنى الظاهر المتبادر من النص مالم يقم دليل قاطع على خلافه علينا أن نعتقد المعنى الظاهر المتبادر من لفظ السماء المذكور فى إنزال المطر، وهو مسكن الملائكة كما هو المراد فى كثير من الاستعمالات الشرعية ،ونوفق بين النصوص التى ظاهرها نزول المطر من السماء والتى ظاهرها نزوله من السحاب بأن الله تعالى ينزله من السماء على البخارات المجتمعة فى الجو المسماة بالسحاب ، ثم ينزله منها الى الأرض ، فتارة تذكر النصوص محل نزوله الاول ، وتارة تذكر محل نزوله الثانى ، والله أصدق القائلين ،

ونقل عن قطب العارفين سيدنا السيد أحمد الرفاعى قدس سره العزيز فى بيان هذا التوفيق أن المطر قسمان ، مطر ينزل من السماء وهو الذى يكون بسببه خروج النبات ، ومطر يتكون من بخارات الارض وبحارها ويتصاعد الى الجو ثم ينحدر من السحاب ، وهذا لايكون به الانبات ، وان كان له حكم ومنافع الله أعلم بها ، ثم اذا ثبت بالدليل العقلى القاطع مايقوله الفلاسفة المتقدمون والمتأخرون : من أن المطر ليس الا من بخارات الارض وبخارها يتصاعد الى الجو بسبب الحرارة ثم ينعقد بسبب البرد سحابا ، ثم يتحلل مطرا ، وتحقق ذلك بدون ريب ساغ لنا حينئذ على موجب القاعدة المتقدمة أن نؤول النصوص التى يتبادر منها أن المطر ينزل من السماء التى هى مسكن الملائكة بأن المراد بالسماء فى هذه النصوص هي ماعلانا وصار سقفا لنا وهو السحاب كما هو أحد معانيها اللغوية ، وقد ذكر هذا التأويل الامام الرازى فى تفسير سورة البقرة ، وأشار اليه الشيخ الشرنبلالى فى شرح « مراقى الفلاح » أو أن يقال انه لما كان نزول المطر بأسباب سماوية من جملتها حرارة الشمس المرسلة أشعتها الينا من جهة السماء فتثير وتصعد الاجزاء المائية من أعماق الارض ومن البحار والانهار الى جو الهواء فينعقد سحابا فيمطر كان الانزال من السحاب حقيقة ومن السماء مجازا باعتبار السببية والله مسبب الاسباب ، وقد ذكر هذا التأويل الشيخ اسماعيل حقى فى تفسير سورة « النبأ » وعلى كل

فقد اندفعت الشبهة ، ووافقت النصوص الشرعية حكم العقل والله تعالى أعلم

وإن قيل : ماحقيقة الرعد ، والبرق ، والصاعقة ؟ فان الفلاسفة المتاخرين يقولون : انها ناشئة عن عمل القوة الكهربائية المتكونة فى السحاب وأقاموا على ذلك فى كتبهم الدلائل من نوع قياس الغائب على الشاهد ، قلنا : اختلف علماء الاسلام المتقدمون فى ذلك ، فقال بعضهم : الرعد ملك موكل بالسحاب يسوقه حيث شاء الله تعالى ، والصوت المسموع صوته ويسمى رعدا أيضا ، وبيده مخاريق من نار ، يسوق بها السحاب ، والبرق ما ينقدح من تلك المخاريق ، واذا اشتد غضبه طارت من فمه نار هى الصاعقة ، واستند أصحاب هذا القول الى حديث آحادى روى فى ذلك ، وقال بعضهم : ان الرعد خلق من خلق الله تعالى ليس بملك ، وروى هذا عن الحسن ، أى البصرى ، وقال بعضهم : ان الرعد ، والبرق ، والصاعقة تتولد من اضطراب أجرام السحاب واصطكاكها فينشأ هذا الصوت المسمى رعدا ، وينقدح ذلك اللمع المسمى برقا ، والصاعقة قصفة رعد هائلة معها نار لا تأتى على شىء إلا أتت عليه بالهلاك ، وعبر البيضاوى عن هذا القول بأنه المشهور ولعل مراده المشهور بين علماء المعقول ، اذا تقرر هذا فاعلم أن اختلاف العلماء فى هذه الاشياء دليل على أن الحديث الذى استند اليه أصحاب القول الأول لم يصح عند الفريق الثانى الذين خالفوهم ، وإلا لما

قالوا بغير مضمونه فيكون اعتقاد مضمون القول الأول ليس واجبا علينا كبقية العقائد الاسلامية ، إذ ليس النص الذى استند اليه من النصوص الثابت ورودها عن الرسول قطعيا : كالمتواتر ، والمشهور ، لكن الصواب عدم مخالفة الحديث وان كل آحاديا ، وإذا لم يقم دليل قاطع على ثبوت خلافه فجميع ما ذكر فيه هو من الجائز العقلي الداخل تحت تصرف قدرة الله تعالى ، فما المانع أن يكون الله تعالى عظيم القدرة قد خلق ذلك الملك ، ووكله بتدبير أمر السحاب والأمطار وينشأ عنه تلك الحوادث من الصوت العظيم ، والبرق ، والصاعقة وأما إذا ثبت بالدليل العقلي القاطع أن تلك الحوادث الثلاث انما هي من فعل الكهرباء فلنا حينئذ تأويل نص ذلك الحديث الآحادي ، فنقول : لا مانع أن الله تعالى قد خلق ملكا ووكله في تدبير شئون الأمطار ، وتلك الحوادث الناشئة عن القوة الكهربائية التي لابد فيها من حكم باهرة انما مبدؤها تدبير ذلك الملك وتصرفه في السحاب فاراد بالحديث افادة أن شئون المطر وتلك الحوادث مرجعها ذلك الملك مع تمثيل وتصوير عظمته ، فعبر عن الرعد بصوته ، والبرق بلمعان مخاريقه، والصاعقة بشرارة فمه ، والمراد من جميع ذلك التمثيل والتصوير وهذا الاسلوب مستعمل فى اللغة العربية يفهم أصحابها ما هو المقصود منه ، وورد نظيره فى استعمالات الشرع الشريف ، فما ورد فى كلام أهل اللغة العربية منه قول بعضهم يمدح رجلا :

ان السماحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشرج

فانه من المعلوم أن السماحة والمروءة والندى هى معان لا يمكن أن توضع فى قبة مع الممدوح ، وانما المراد تمثيل وتصوير ملازمة ذلك الممدوح لتلك الصفات الكريمة حتى كأنما ضربت عليها وعليه قبة ، ومما ورد منه فى استعمال الشرع الشريف قوله تعالى : «والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه » فانه قد يؤول بأن المراد منه تمثيل وتصوير عظمة الله تعالى وقدرته وعظمة سلطانه وإلا فهو سبحانه ليس مشابها للحوادث ، ويستحيل ملاصقته لها بأن يقبض على الأرض ويأخذ السموات بيمينه سبحانه وبهذا يتضح التوفيق بين ذلك الحديث الآحادى وبين ما فرض ثبوته بالدليل القاطع من كلام الفلاسفة المتأخرين ، والله تعالى أعلم

فان قيل قد ورد فى القرآن الشريف مايفيد أن الله تعالى جعل الكواكب زينة السماء الدنيا ، وجعلها حفظا من الشياطين ، ورجوما لهم؛ لأنهم يصعدون الى قرب السماء لاستراق السمع من الملائكة، ومن المعلوم أن الفلكيين يقولون بكبر كثير من الكواكب حتى ان منها ما هو أكبر من الأرض بمرات ، وورد أيضا فى بعض الآثار ما يدل على كبر البعض منها ولو رجمت الشياطين بهذه الكواكب الكبيرة لسقطت على الأرض وأضرتها ، ولكان يظهر النقص فى الكواكب المرئية !! على طول الزمان ، قلنا . ليس المراد من النص القرآنى أن

نفس الكواكب الكبيرة تكون رجوما حتى يلزم ذلك بل المراد كما قال الامام الرازى فى تفسير سورة « الصافات » وتفسير سورة « الملك » أن تنفصل شعل من الكواكب ترجم بها الشياطين وهى الشهب التى نراها منقضة من جهة السماء ، أو أن الكواكب قسمان قسم منها الكبير الثابت الذى لا يتغير ولا ينقض ، وقسم منها الصغير الذى ينقض ويكون رجما للشياطين ، وهى هذه الشهب التى نراها منقضة

فان قيل : ان الفلكيين المتأخرين يقولون : ان الشهب أجسام صغيرة سابحة فى الفضاء تنجذب أحيانا الى الأرض عند قربها منها وتنقض ملتهبة من سرعة الحركة ، قلنا : لم يقل النص القرآنى ان كل شهاب فهو رجم للشياطين بل مفاده أن الكواكب رجوم للشياطين فى الجملة فما المانع أن الله تعالى خلق تلك الأجسام وأقامها فى الفضاء وهي من جملة الكواكب ولكنها صغيرة ، فتارة تنقض إلى جهة الأرض بسبب جذب الأرض لها عند قربها منها ، وتارة يرسلها الله شهبا على الشياطين المسترقين للسمع ، فقد ظهر مصداق النص القرآنى أن الله تعالى جعل النجوم زينة ورجوما فالزينة بكبارها والرجوم ببعض صغارها ، فالفلكيون ماعلموا غير مادلتهم عليه أرصادهم ، ونحن قد علمنا أن من الكواكب ما يكون رجوما للشياطين وهو بعض تلك الاجسام الصغيرة ، وثبت عندنا ذلك باخبار القرآن الشريف

الصادق ولا إشكال فى ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم

فان قيل : اذا ثبت ما يقوله الفلكيون من أن الأرض كرة قائمة فى الفضاء ليست مركوزة على شيء ، فما يقولون فى الأثر المروى عن بعض الصحابة أنه سئل سيدنا عيسى عليه السلام عن الأرض فقال : انها على قرن ثور والثور على صخرة والصخرة على ظهر الحوت والحوت فى بحر والبحر على الريح وتحت الريح ظلمة ، قلنا : هذا الأثر ولو فرض نقله حديثا ليس آية قرآنية ولا حديثا متواترا ولا مشهورا حتى يجب الايمان به كبقية العقائد الاسلامية لعدم اليقين بثبوته ، وعلى فرض ثبوته عن سيدنا عيسى عليه السلام فيمكن تأويله بكونه من ضرب الأمثال ، وكثيرا ما ترد الرموز وضرب الامثال في كلام سيدنا عيسى عليه السلام كما يعلم ذلك من تتبع المنقول عنه ، والله أعلم

الفصل الرابع

فى رد شبه شتى عن نصوص شرعية

اعلم أنه قد ورد فى القرآن الشريف ما يفيد أن الله تعالى خلق آدم أبا البشر عليه السلام ابتداء من طين بدون أب ولا أم ، وورد أنه سبحانه خلق زوجته حواء منه ، وقال بعض المفسرين : ان المعنى أنه خلقها من جنسه ونوعه كما قال تعالى : « وخلق لكم من أنفسكم أزواجا»

وقال أكثر المفسرين : انه خلق حواء من ضلع من أضلاعه اليسرى واستندوا فى ذلك الى حديث آحادى ورد فى ذلك ، وورد فى القرآن أيضا أن الله تعالى خلق سيدنا عيسى عليه السلام من السيدة مريم رضى الله تعالى عنها من دون أب ، قال علماء الاسلام : ان فى خلق هؤلاء المذكورين بهذه الطرق مع خلق بقية البشر على الطريق المعتاد اشارة من الحق تعالى للعباد على تمام قدرته بخلق الانسان على أى كيفية أراد ، فخلق آدم بدون ذكر وأنثى ، وخلق حواء من ذكر ، وخلق عيسى عليه السلام من أنثى ، وخلق بقية البشر ذكورا وإناثا من ذكر وأنثى ، ومن يؤمن بوجود الله تعالى وبكمال قدرته ويتصور ما أبدعه من الحيوانات والنباتات من التراب لايصعب عليه الايمان بخلق آدم ، وحواء ، وعيسى بالكيفات المذكورة ، إذ لا دليل على استحالة شىء من ذلك ، وقد أخبر به الصادق ، وما يقوله بعض المتأخرين من الفلاسفة فى حق الانسان وبقية الحيوانات : من أنها تولدت من عناصر الارض ثم اشتق بعضها من بعض بتفاصيل مستطيلة ، ويسمون قولهم هذا مذهب النشوء فهو قول مبني على الظنون والاوهام ، لامستند له فى باب اليقين ، كما أوضحت ذلك فى « الرسالة الحميدية فى حقيقة الديانه الاسلامية » فلينظر هنالك ، فلا داعى لنا الى تأويل النص الوارد فى خلق آدم من تراب كما يعلم من القاعدة التي تقدم تقريرها من أنه لايسوغ لنا تأويل النص الشرعى الا اذا قام الدليل القاطع على ما يناقض المعنى

المتبادر منه ، وعلى فرض قيام الدليل القاطع على مايقوله هؤلاء الفلاسفة فيمكن تأويل هذا النص فى خلق آدم وحواء بتأويلات مناسبة كما بينته فى « الرسالة الحميدية » أيضا فارجع اليه : وأما من لم يكن مؤمنا بالله تعالى ، وعظيم قدرته فهذا الصواب فى حقه كما تقدم مرارا اقامة الشواهد له حتى يصير مؤمنا بالله تعالى ، وبعد ذلك يتضح له صدق تلك النصوص ، والله أعلم

كذلك قد ورد فى القرآن الشريف فى قصة أهل الكهف مايفيد أنهم لبثوا فى كهفهم ثلاثمائة وتسع سنين ، وجاء شرح قصتهم فى الاحاديث الشريفة أنهم أشخاص مؤمنون على دين سيدنا عيسى الصحيح ، خافوا من إجبار ملكهم لهم على الكفر وعبادة الأوثان فاختبؤا فى ذلك الكهف ، وأرسل الله عليهم النوم وحفظ حياتهم تلك المدة ، ثم بعد يقظتهم عادوا فناموا وسد عليهم القوم الذين اطلعوا عليهم باب الكهف ، فهذا الحال من الجائزات العقلية اذ لامانع من أن الله تعالى يحفظ حياة النائم سنين عديدة ، فان الغذاء ماهو الا سبب عادى فى حفظ الحياة والله تعالى قادر على حفظها بدون الغذاء ، وقد يوجد فى الحيوانات لاسيما من نوع الحيات ماينام تحت التراب مدة الشتاء لايأكل ولا يشرب ويحفظ الله تعالى عليه حياته تلك المدة ، وكذلك قال بعض الباحثين عن طبقات الارض : إن بعض الحيوانات الصغيرة قد تخمد تحت التراب ألوفا من السنين وهى محفوظة الحياة

واستشهد على ذلك ببعض ما اكتشفوه ، ولا يلزم من وجود أهل
الكهف الآن أن يطلع عليهم الباحثون عن الآثار القديمة ، فكم من
البقاع لم يصلوا اليها ولم تطأها أقدامهم ولم يرد حديث صحيح بتعيين
مكانهم ، والله تعالى اعلم

وكذلك قد ورد فى نصوص القرآن الشريف ، وفى أحاديث
كثيرة ما يدل على أن الرؤيا المنامية قد تدل على أمور تحدث
فى اليقظة . اما صراحة ، واما بنوع اشارة تحتاج للتفسير ، قال العلماء
ان الرؤيا المنامية هى تصورات فكرية تحدث فى ذهن النائم على
أنواع ، منها ماسببه بخارات الطعام ، ومنها ماسببه تفكر الانسان فى أشياء
حالة اليقظة فيراها أو يرى ما يناسبها فى حالة النوم ، ومنها ما سببه
من الشيطان لأجل غرور الناس ، أو ادخال الحزن عليه ، أو نحو ذلك
من مقاصده الخبيثة ، ومنها ما يكون من جانب الله تعالى تبشيرا للعباد
أو تحذيرا ، أو غير ذلك : إما صراحة ، وإما إشارة ، وهذا القسم بنوعيه
هو الذى ورد فى الشريعة أنه جزء من الوحى ، وكل هذه الاقسام
جائزة لا تستلزم محالا عقليا ، وللقسم الأخير شواهد كثيرة تنقل
فى التواريخ القديمة الى هذا الزمان ، ونظن انه قل أن يخلو شخص
من حصول شىء له من ذلك فى مدة عمره ، ولكن يوجد في فلاسفة
هذا العصر من ينكر هذا النوع الاخير من الرؤيا وينكر دلالتها على
شىء فى اليقظة بدون دليل منه على أستحالته أو عدم وجوده ، واذا

نقل اليه بعض الشواهد التى حدثت لبعض الناس من هذاالنوع
يؤول ذلك الشاهد بتأويلات واهية سخيفة ، فالذى نعتقده أن دلالة
هذا النوع من الرؤيا على أمور تحدث فى اليقظة هو أمر جائز عقلا
وقد أخبرت بوقوعه نصوص الشريعة فنؤمن به ونصدق

كذلك قد ورد فى بعض النصوص القرآنية ، والأحاديث النبوية
ما يفيد أن للسحر حقيقة وآثارا فى الخارج ، قال العلماء : ان من
السحر ما يوجد له حقيقة وآثار فى الخارج مثل قلب بعض صور
الحيوان إلى صورة أخرى ، وقتل الحيوان والاضرار ببعض الاجساد
وذلك ناشىء إما عن خاصية فى نفس الساحر خصه الله تعالى بها
أو عن استعمال الساحر بعض الرقى والعزائم ، ولكن كل ما يحدث
من آثار ذلك فى الخارج فهو بمحض خلق الله تعالى ، وتلك الخاصية
فى الساحر واستعماله بعض الرقى والعزائم ما هو إلا من الأسباب
العادية التى جرت عادة الله تعالى فى إحداث مسبباتها عندها، وليس
الساحر خالقا لشىء من تلك الآثار ، ومن السحر ما لا أثر له
فى الخارج حقيقة وإنما يحدث عنه فى نظر الرائى وفكره صور وهمية
متخيلة يظن الرائى أن لها وجودا فى الخارج والحال ليس كذلك ،
وتلك الصور الخيالية تحدث إما بواسطة أعمال كيماوية ، أو باستعمال
النواميس الطبيعية كنواميس النور ، فيرى الانسان أثرا فى الخارج

لا حقيقة له فيه واما بوسائط أخرى كسرعة العمل وغير ذلك ،
قال أهل السنة والجماعة: لا مانع أن الله تعالى يوجد فى بعض النفوس
خاصة التأثير بالاجسام وقلب صورها واحداث الاضرار ونحو
ذلك ، أو يحدث ذلك عند استعمال بعض الرقى والعزائم ، ولكن
كل ذلك بخلق الله تعالى وجعله تلك الخاصة والرقى والعزائم اسبابا
عادية تحدث عندها تلك الآثار كما لا مانع من خلق الله تعالى تلك
الصور الخيالية المتوهمة التى لاحقيقة لها فى الخارج عند استعمال بعض
النواميس التى تنشأ تلك الصور عنها ، وان قيل : لو جوزنا وقوع
السحر يلزم اشتباه الساحر بالرسول الذى يأتى بالمعجزة ، قلنا : ان
الرسول يدعى الرسالة من عند الله تعالى ، ويصدقه الله تعالى باظهار
المعجزة على يديه ، والساحر لا يدعى الرسالة وان أراد ادعاءها فمن
حكمة الله تعالى أن لا يظهر الامر الخارق للعادة على يديه ، أو أنه
ان ادعى الرسالة كان من حكمة الله تعالى أن يطلع بعض من يدعى
بينهم على حقيقة أعماله السحرية فلا يلتبس عليهم الحال بالمعجزة
كما قال الرازى فى حكمة تعلم الملكين الناس السحر ، وقد نقلناه
فيما تقدم، فهذا يكون الفارق بين المعجزة والسحر ، فان قيل : إن
الفلاسفة المتأخرين أنكروا وجود السحر من النوع الأول ، وهو
أن يكون على يد الساحر ظهور بعض الحقائق من قلب الصور
والاضرار بالغير بواسطة خاصية بنفسه أو استعمال بعض الرقى

والعزائم ، واحتجوا على ذلك بانه لا يظهر فى العقل ارتباط بين تلك الوسائط وظهور تلك الحقائق فى الخارج ، وبأن فى جميع ما اكتشفناه من حقيقة حال السحرة فى هذا الزمان أن جميع ما يظهر على أيديهم هى صور وخيالات لا حقيقة لها فى الخارج ، وهى تحدث على أيديهم بواسطة استعمال بعض النواميس ، أو بواسطة خفة اليد وسرعة العمل ، وكثير من السحرة من أقر بأن ما يظهره للعيان ما هو إلا صورة خيالية لا حقيقة لها ، قلنا انا معشر أهل السنة نقول ان عدم ظهور ارتباط بين تلك الوسائط وهى خاصية النفس واستعمال الرقى والعزائم وبين ظهور تلك الحقائق فى الخارج لا يلزم منه عدم وجوده في نفس الأمر ، فربما يكون ذلك الارتباط موجودا وهم لم يطلعوا عليه لا سيما وأمر السحر شيء خفى ووجود السحرة قليل وفى أزمنة متباعدة ، وهذا المغناطيس لاشك أنه يجذب الحديد ومع ذلك لم يطلع هؤلاء القوم على حقيقة السبب الذى به توجد هذه الخاصية ولم كان يجذب الحديد دون غيره ؟ غاية ما يقولونه : ان تركيب أجزاء المغناطيس يقتضى ذلك ، وهذا ادعاء لسبب مجمل غير واضح ولا مقنع للعقل فيه ، على أننا نقول: ان وجود تلك الحقائق على يد الساحر بمحض خلق الله تعالى وهذا لا مانع منه سواء كان هنالك سبب موجب أو لم يكن ، وأما قولهم : اننا فى جميع ما اكتشفناه من حقيقة حال السحرة فى هذا الزمان قد اتضح لدينا أن جميع

ما يظهر على أيديهم منه هى صور وخيالات لا حقيقة لها فى الخارج فنقول أولا . لا نسلم أنهم أطلعوا على أحوال كل ساحر فى هذا الزمان ، وثانيا لا مانع أن يكون النوع الأول من السحر قد فقد من العالم كما فقدت عدة علوم وبقى النوع الثانى فقط الذى اطلعوا عليه ، ونحن لا نقول بوجود النوع الأول دائما حتى فى هذا الزمان بل فى نفس الأمر وهو عزيز الوجود ولا يوجد صاحبه إلا فى أزمنة متطاولة ، فالملخص أننا معشر أهل السنة نقول بوجود السحر لا سيما فى الأزمنة الغابرة كما جاءت بذلك النصوص وبأن آثاره بمحض خلق الله تعالى وان لم نطلع على وجود شيء منه فى هذا الزمان ، والله أعلم

كذلك قد ورد فى بعض الأحاديث الآحادية أن لبعض الأعين تأثيرا فى سقم بعض الأجسام واضرارها ، وحمل عليه بعض المفسرين تفسير بعض الآيات ، وقد أنكر هذا بعض الفلاسفة المتأخرين والمتقدمين ،قالوا : كيف يعقل أن العين تعمل من بعد وتؤثر فى الاجسام بالأسقام والأضرار ؟ ونحن نقول : ان ذلك من الجائزات العقلية وحقيقة ذلك التأثير بخلق الله تعالى ، والعين سبب عادى . واذا أريد بيان ذلك التأثير عقلا ، فنقول : ان الناس مختلفون فى خواصهم كما يكون الاختلاف بين أصناف الحيوانات فما المانع من أن يكون في الناس ذو طبيعة فى نفسه ذات سم وضرر ، فاذا نظر شيئا بعينه وأعجبه وتوجه

بنفسه اليه انفصل من عينه فى الهواء مادة سامة اذا وصلت الى المرئى أضرت به ، وأى مانع من انفصال مادة من العين عند الانفعالات النفسية كما تنفصل منها الدموع عند ذلك ، وقد قال بعض المتكلمين على خواص الحيوانات ان من الأفاعى ما ينظر إلى الانسان فيموت بنظره ، وما يصوت فيموت السامع بصوته ، واذا صح هذا فتلك الأفعى لم يكن قتلها من بعد إلا بواسطة سم ينفصل عنها ويصل إلى الانسان ، ومن نظر الى المغناطيس وتأثيره بالحديد من بعد لا يستغرب تأثير العين فى الأجسام من بعد ، وهذا الذى ذكره من تأثير العين فى سقم الأجسام واضرارها هو الذى ثبت فى الاحاديث ، وأما ما ينقل من أن العين تهدم المبانى العظيمة وتشق الجبال الكبيرة وأمثال ذلك فهو شىء منقول فى القصص والأخبار الشائعة بين الناس ، وإذا لم يصح في نقول الشريعة الصحيحة فلا يعتمد عليه ، والملخص أنا نقول بجواز تأثير العين فى الاجسام بالاسقام والأضرار ووجود ذلك بخلق الله تعالى لورود النص بذلك ولا مانع منه عقلا ، ولا يستلزم محالا ، والله تعالى أعلم

وكذلك قد ورد النص فى بعض الاحاديث الآحادية أن الطاعون من وخز الجن ، والذى يقوله الأطباء : ان مرض الطاعون من فساد الدم الناشئ من فساد الهواء فنقول : اذا تحقق ما يقوله الاطباء يمكن أن يقال : ان السبب الاصلى فى الطاعون هو تسليط

الله تعالى الجن على بنى آدم بافساد هوائهم ودمهم فيتولدعن ذلك تلك الغدد الطاعونية ، فالنص الشرعى أخبر بالسبب الاصلى وكنى عنه بوخز الجن ، والاطباء اطلعوا على السبب الاخير فقالوا بما اطلعوا عليه ولا اشكال فى ذلك ، والله أعلم

وان قيل قد جاء فى حديث آحادى أنه عليه السلام قال: «لا يوردن ذو عاهة على مصح» وقال : «فر من المجذوم فرارك من الاسد» وجاء فى حديث آخر أنه عليه السلام قال: «لا عدوى» فما التوفيق بينهما ؟ قلنا من المعلوم أن اعتقاد أهل الاسلام أنه لا تأثير لشىء بطبعه بل كل أثر فهو بخلق الله تعالى ، وانما قد أوجد الله أسبابا عادية للآثار والله قادر على تخلف تلك الآثار عن أسبابها ، وأن العمر محتوم لا يزيد ولا ينقص ، ولا يصيب الانسان الا ما قدر عليه ، فلا يجوز للانسان أن يعتقد أن المرض الفلانى يؤثر بطبعه ويعدى غير صاحبه ، وأن الانسان قد يعدى بالمرض ويموت قبل أجله الذى قدره الله له ، اذا تقرر ذلك فنقول : يمكن — والله أعلم بمراد رسوله أن المراد من قوله عليه الصلاة والسلام : «لا عدوى» أنه لا يجوز اعتقاد العدوى بتأثير الأمراض بطبعها واماتة الانسان قبل أجله . ولكن قد توجد فى بعض الأمراض مثل الجذام والجدرى والسل وأمثال ذلك رائحة كريهة ومادة سامة تنفصل من صاحبها ربما تكون سببا عاديا لحدوث المرض فيمن يخالطه ويقاربه فيمكن حينئذ — والله أعلم أن يكون

هذا هو المعنى الذى أشار اليه صلى الله عليه وسلم بقوله « لا يوردن ذوعاهة على مصح » وقوله : « فر من المجذوم فرارك من الأسد » فكما أن شدة البرد وشدة الحرارة والتخمة وأمثال ذلك تكون سببا للمرض كذلك تلك الرائحة الخبيثة والمادة السامة التى تنفصل من المريض قد تكون سببا عاديا لمرض الصحيح المخالط له ، فاذا تجنب المرء أصحاب تلك الأمراض تحاشيا عن الأسباب العادية مع اعتقاده أن تلك الأمراض ليست مؤثرة بطبعها ، وأن تحاشيه لا يكون مانعا لقدر الله تعالى ، ولا مطيلا له عمرا فلا مانع من ذلك التحاشى مع مراعاة تلك الشروط لصحة الاعتقاد ، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم فى الطاعون : « اذا كان فى البلد الذى أنتم فيه فلاتخرجوا منه » وقال أيضا : « إذا كان فى بلد فلا تدخلوه » قال بعض العلماء يريد بقوله : « لا تخرجوا منه » اذا كان فيه كأنكم تظنون أن الفرار من قدر الله ينجيكم ، ويريد بقوله : « واذا كان فى بلد فلا تدخلوه » أن مقامكم فى البلد الذى لا طاعون فيه أسكن لأنفسكم ، وأطيب لعيشكم ، ومع [illegible] الانسان أن يخالط أصحاب الأمراض اتكالا على الله وثقة [illegible] تعالى : لأن حصول الضرر بمخالطتهم غير مقطوع به ، وقد ورد « أنه عليه الصلاة والسلام أكل مع مجذوم في اناء واحد وقال ثقة بالله » فبالتأمل فى هذا المقام يظهر التوفيق بين الأحاديث الشريفة ويعلم اعتقاد المسلمين فى مسألة العدوى ، والله تعالى أعلم

وان قيل : قد ورد فى حديث آحادى ما مفاده أن الله تعالى قد جعل ملكا موكلا بعروق الارض فاذا أراد الله زلزلة جهة من الأرض أمر ذلك الملك فحرك عرق تلك الجهة فتحدث فيها الزلزلة، والفلاسفة يقولون : ان الزلزلة تحدث من احتباس أبخرة أو مياه فى جوف الأرض وتنضغط بالحرارة وليس لها منفذ الى ظاهر الأرض فيحدث عنها تلك الحركة العنيفة المسماة بالزلزلة ، قلنا الذى ورد فى الحديث لا مانع منه عقلا ، ولكن اذا ثبت بالدليل القاطع ما يقوله الفلاسفة يمكن تأويل ذلك الحديث بان الله تعالى جعل ذلك الملك موكلا بتدبير الأبخرة والمياه التى فى جوف الأرض، وقد كنى فى الحديث عن ذلك بانه موكل بعروق الارض ، فاذا أراد الله تعالى زلزلة جهة أمر ذلك الملك فسلط الأبخرة والمياه وضغطها بالحرارة فى جوف تلك الجهة فتحصل الزلزلة ، فعبر عن ذلك فى الحديث بأنه يحرك عرق تلك الجهة ، ولا مانع من الكناية لصعوبة الفهم على العامة أن الابخرة تحرك الارض العظيمة والله تعالى أعلم

إن قيل: قد توجد آثار في بعض الكتب فى كبر أجسام المتقدمين تحتوى على مبالغات يستبعدها العقل ، وهي وإن لم تكن مستحيلة عقلا لكن قد اكتشف الباحثون عن الآثار الارضية على أجسام محنطة من تاريخ أربعة آلاف سنة فوجدوها مثل أجسام أهل هذا الزمان ، فما تقولون فى ذلك ؟ قلنا ان الذى ثبت فى هذا الباب أن الله

تعالى ذكر من قبلنا ، فقال : « كانوا أشد منكم قوة » وقال عن طالوت : « وزاده بسطة فى العلم والجسم » وقال فى تقريع بعض المتقدمين « واذا بطشتم بطشتم جبارين » وكل ذلك لا إشكال فيه ولا تعارضه اكتشاف ولا غيره : وأما ماشاع من قصة عوج بن عنق والمبالغة فى كبر جسمه ، وكذلك ماينقل ان آدم عليه السلام كان رأسه يصل السحاب والسماء يحاكها فاعتراه الصلع من ذلك ، فقد قال الامام ابن قتيبة فى شرح الاحاديث المشكلة ان هذا شىء لم يأت به كتاب ، ولا ثقة ، وليس له اسناد ، وقال الامام ابن فورك فى شرح الاحاديث المتشابهة ، عن الروايات فى طول آدم وقامته انها مما لايوثق به ؛ إذ ليس فى ذلك خبر صحيح ، ولم يثبت أنه قد كانت خلقة آدم على خلاف هذه الخلقة عن الحد الزائد الذى يخرج عن المعهود من متعارف خلق البشر ؛ نقول : لكن يعارض كلام ابن فورك ما جاء فى حديث البخارى الصحيح من أن طول آدم كان ستين ذراعا وانه لم يزل الخلق ينقص حتى الآن ، فالتحقيق أنه على فرض ثبوت أحاديث فى كبر أجسام المتقدمين فيمكن حملها على أنهم كانوا أكبر أجساما من أهل هذه الازمنة بما هو خال عن المبالغة كالستين ذراعا فى خلق آدم ، وأنه من المحتمل أن الاجسام أخذت تصغر فى أزمنة متطاولة لاسباب عادية حتى بلغت مقدار هذه الاجسام المعروفة الآن ، والذى اكتشفه الباحثون عن الآثار الارضية الدالة على أجسام موجودة بعد أن وصلت

الاجسام فى الصغر الى هذا القدر ، وما تعنيه الاحاديث التى فرض صحتها هو فى أجسام أهل أزمنة قديمة جداً ، ومثل هذا يقال فى طول أعمار المتقدمين ، فانه قد ورد فى القرآن أن نوحا لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، وورد فى الأحاديث أن آدم عليه السلام عاش ألف سنة ، وهذا أمر ممكن عقلا لا استحالة فيه ، ومن الجائز أن أعمار البشر كانت تطول ثم أخذت تتناقص كما تناقصت أجسامهم حتى بلغت هذا الحد المعلوم ، والله تعالى أعلم

الخاتمـــــة

نسأل الله حسن الخاتمة

إعلم أنه يجب على المسلمين شرعا نصب إمام يقوم باقامة الحدود وسد الثغور ، وتجهيز الجيوش ، وأخذ الصدقات ، وقهر المتغلبة ، والمتلصصة ، وقطاع الطريق ، وتزويج الصغار والصغائر الذين لا أولياء لهم ، وقطع المنازعات الواقعة بين العباد ، وقبول الشهادات القائمة على الحقوق ، واقامة الجمع ، والاعياد ، ولا يتم جميع ذلك بين المسلمين إلا بامام يرجعون اليه فى أمورهم : يدرأ المفاسد ، ويحفظ المصالح ، ويمنع مما تسارع اليه الطباع ، وتتنازع عليه الأطماع . يعول الناس عليه ، ويصدرون عن رأيه على مقتضى أمره ونهيه ، وقد أجمعت الصحابة رضى الله تعالى عنهم على نصب الامام بعد وفاته عليه الصلاة

والسلام ، قال أبو بكر رضى الله تعالى عنه « لا بد لهـذا الامر ممن يقوم به فانظروا وهاتوا آراءكم ، فقالوا من كل جانب صدقت صدقت » ولم يقل أحد منهم لا حاجة بنا إلى إمام ، ويجب طاعة الامام على جميع الرعايا ظاهرا وباطنا فيما لايخالف الشرع الشريف لقوله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » وهم العلماء ، والامراء ، ولقوله عليه الصلاة والسلام : « من أطاع أميرى فقد أطاعنى ، ومن عصا أميرى فقد عصانى » وفى صحيح البخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم « من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن يطع الامير فقد أطاعنى ، وانما الامام جنة يقاتل من ورائه ، ويتقى به »

ومما ينبغى نصرة الامام على أعداء الدين والمفسدين ومحبته ونصحه والدعاء له بالصلاح والتوفيق والرشاد ، والنصر والسداد فان فى صلاحه صلاح الامة ، وقد قال بعض السلف ما معناه : لو أعطيت من الله دعوة صالحة لجعلتها فى الخزينة

نسألك اللهم ونتوسل اليك بعظمة ذاتك العلية ، وصفاتك السمية ، وبأسمائك السنية ، وبروحانية سيدنا محمد خير البرية ، أن تحفظ وتنصر وتؤيد وتوفق حضرة مولانا أمير المؤمنين . وخليفة رسول رب العالمين ، مولانا السلطان الأعظم ، والخاقان [illegible] ، سلطان سلاطين العرب والعجم . وظل الله على [illegible] [illegible] سلطان ، ابن السلطان ،

السلطان الغازى «عبد الحميد » خان ، ابن السلطان الغازى عبد المجيد خان ، ابن السلطان الغازى محمود خان : أيد الله خلافته إلى آخر الدوران ، فهو الحامى حوزة الملك والدين ، والناهض بهذه الأمة إلى أسمى شرف مكين ، وان من حسنات عصره السعيد ، جمع هذا الكتاب المفيد المسمى «بالحصون الحميدية للمحافظة على العقائد الاسلامية » إذ هو طبق رضائه العالى ، واثر إحسانه المتوالى ، جعله الله تعالى خالصا لوجهه الكريم ، ووسيلة للفوز بجنات النعيم ، اللهم آمين ، وصلى الله تعالى وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ، والحمد لله رب العالمين ، آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الانبياء والمرسلين ، وعلى آله ، وأصحابه وسائر الصالحين

« أما بعد » فان كتاب « الحصون الحميدية للمحافظة على العقائد الاسلامية » من أبدع ما أخرج للناس فى فن التوحيد . ولا عجب فهو من آثار ذلك الامام الجليل . والعالم الشهير . الاستاذ السيد حسين أفندى الجسر الطرابلسى طيب الله ثراه

بيد أنه قد لعبت به أيدى التحريف والتصحيف ، وسمح
حضرة الهمام الحاج مصطفى أفندى محمد بنشره فى حلة تتناسب مع نفاسة
الكتاب وجلالة مؤلفه ، وعهد إلينا بمعارضته بأصوله وتصحيحه ؛
فوفق الله تعالى لعدة نسخ مختلفة الطبع وزمانه ، ومنها نسخة نشرت
فى عهد المؤلف ، فهذبته جهد الطاقة ، وكم كنت حريصا على خلوه
من الغلط ، ولكن فرط منى أغلوطة واحدة نرشدك إلى صوابها
فيما يلى ، إسداء للنصيحة ، وأداء للأمانة ، والعصمة لله وحده

وها هو الكتاب يتهادى إليك اقترابا ، ويهدى من معانيه
كواعب أترابا ، فنزفه للمسلمين ، وجماعة الموحدين ، فى مشارق
الارض ومغاربها ولا عطر بعد عروس ؟

رضوان محمد

٩ صفر سنة ١٣٥١
١٣ يونيه سنة ١٩٣٢

« تصويب »

ص	سطر	
١٢٨	١٣	« واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا »

فهرست «الحصون الحميدية»

للسيد حسين افندى الجسر الطرابلسى